

52
روايات عالمية للجيب
Looloo
www.dvd4arab.com
موبي ديك
بقلم : هرمان ملفيل
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق

روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمى ، فى مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف



هو أديب أمريكى ارتبط اسمه بالبحر ، وبصفة خاصة بقصته الأشهر (موبى ديك MOBY – DICK) التى صدرت عام 1851 ، والتى قيل إنها أعظم رواية فى الأدب الأمريكى على الإطلاق .. الحقيقة أن هناك ثلاثة كتّاب أمريكيين ارتبطوا بالبحر بشدة :

الأول هو (ملفيل Herman Melville) والثانى هو (هيمنجواى Hemingway) صاحب (العجوز والبحر) الغنية عن أى تعريف ، والثالث هو (بيتر بنشلى Benchley) الذى ارتبط اسمه بقصص (الأعماق) و(فكان) و(الجزيرة)(*).. الحقيقة أن الثالث توغل فى البحر فعلاً ، وبلل قدميه فعلاً .. ربما أكثر من أى كاتب آخر ، لكنه كما نعلم اكتفى بالمغامرة المثيرة فى حد ذاتها .. بينما اهتم (هيمنجواى) و(ملفيل) بالنفس البشرية .. لقد ذهبا إلى البحر ليغوصا فى نفوس أبطالهما ..

(★) يلاحظ قراؤنا المخضرمون أننا قدمنا روايات (بنشلى) الثلاث فى هذه السلسلة .. و(فكان) اشتهرت باسم (الفك المفترس) .

لم يلق الكتاب ـ (موبى ديك) ـ نجاحًا إلا بعد ثلاثين عامًا من صدوره ، إلا أن القصة الأخرى الشهيرة لملفيل ، والتى كان اسمها (تايبى ـ 1846) لاقت نجاحًا كبيرًا وقت صدورها .

ولد (ملفيل) عام 1819 فى مدينة (نيويورك) لأسرة من التجار ، أفلس والده وجن ومات كل هذا بينما كان (ملفيل) الصغير فى سن الثانية عشرة ، وقد أصابته الحمى القرمزية فسببت ضعفًا دائمًا فى بصره ، وتنقل (ملفيل) فى عدة وظائف لكن نهمه للقراءة لم يتوقف قط ، والتحق بالبحرية الأمريكية وجاب العالم بهذه الطريقة ، وقد تعرف أكلة لحوم البشر المعروفين باسم (تايبى Typee) أثناء عمله فى جزر (ماركيساس) ، وعنهم كتب رواية شهيرة جدًا .

صدرت روايته (تايبى) فى بريطانيا أولاً ، ونالت قسطًا لابأس به من النجاح ، ثم أصدر كتابه الثانى (أوموو ـ 1847) عن تجاربه فى جزر (بولينيزيا) ، وعامة كان نجاح (ملفيل) فى بريطانيا أكبر من نجاحه فى وطنه .

عام 1847 تزوج وابتاع مزرعة فى (ماساتشوستس) أطلق عليها اسم (رأس السهم) ليكون جار الأديب الأمريكى العظيم (ناثانييل هوثورن Hawthorne) ، وإلى حد ما يراهما دارسو الأدب الأمريكى ثنائيًا متقارب الأفكار والميول .

وحين كتب ملفيل (موبى ديك) كانت الرواية تتحدث عن صيد الحيتان بالتفصيل وبشكل شبه مدرسى ، لكن (هوثورن) العظيم أقنعه بأن يجعل منها ملحمة رمزية عميقة ، لا تختلف كثيرًا عن الملاحم القديمة ، وتحمس (ملفيل) للفكرة إلى حد أنه كان يقضى اليوم كله فى الكتابة ويصرخ : «أعطونى فوهة بركان (فيزوف) لأستعملها كمحبرة !» . إن الرواية مليئة بالشعر والحوار المسرحى والأدب التسجيلى ، ودائرة معارف كاملة عن الحيتان ، ومقتطفات طويلة جدًا من مذكرات بحارة سفن الصيد ، إلى حد يجعلها عملاً شديد الكثافة .

على كل حال خيبت الرواية أمل من أحبوا (تايبى) و(أوموو) .. ولم يفهمها أحد سوى نقاد قليلين .. فالقصة مليئة بالغموض الفلسفى والشكسبيرى ، وكابتن (أهاب Ahab) البطل هو خليط من (ماكبث) والشيطان .. والاسم نفسه هو اسم أحد ملوك بنى إسرائيل فى التوراة الذى ارتد عن دينه وراح يعبد الإله الوثنى (بعل) ، وقد غرق النقاد فى تفسير المقصود بالقبطان .. هل هو رمز لجنون البحث عن الذهب ؟ هل هو معادل (بروميثيوس) فى الأساطير الإغريقية ؟ هل هو نذير بدكتاتوريات القرن العشرين ؟ هل يرمز لمحاولة تحدى الإنسان لقدره أو الطبيعة العاتية ؟ أم هو ـ ببساطة ـ مجرد قبطان يطارد حوتًا ؟

إن الفيلم الرائع الذى قدمه (هوستون) عن الرواية عام 1956 بلور غموض الرواية المقصود جيدًا ، وقد جعلنا نتساءل عمن الأكثر شرًا : القبطان أم الحوت ؟

إلا أن قصص (ملفيل) التالية لم تلق نجاحًا ، وبدأت حالته المادية والصحية تتدهور .. ولم تتحسن أحواله المالية إلا حين وجد عملاً كمفتش فى الجمارك فى (نيويورك) . وتوفى عام 1891 فلم يلحظ أحد وفاته . واليوم اختلف الأمر تمامًا وصار كل دارس للغة الإنجليزية فى العالم يعرف جيدًا قدر هذا الكاتب العظيم ، ومزرعته (رأس السهم) صارت متحفًا ، بل إن عددًا لا بأس به من النقاد يعتبرون هذه الرواية التى تقرؤها الآن أعظم ـ وأصعب ـ رواية أمريكية على الإطلاق .

بقى أن أقول إن هذه الترجمة مليئة بالتصرف ، ربما إلى أقصى حد عرفته هذه السلسلة .. مع الحفاظ قدر الإمكان على انتظام السرد ، لأن الرواية بالغة الطول والتعقيد ، وكل من قرأها بلغتها الأصلية يعرف معنى ما أقول . بمعنى آخر : من يقرأ هذه الترجمة سيعرف خيط القصة مع خمسين بالمائة من روح وأسلوب الرواية الأصلية ،وهى ليست بالصفقة الخاسرة ، أما المهتمون بالاستزادة أو قراءة أعمال هذا الأديب بلغتها الأصلية فيمكنهم البدء بهذا الموقع ؛ فهو يحوى كل شىء تقريبًا :

http://www.melville.org

أهم أعمال ملفيل :

- تايبى 1846
- أومو 1847
- الرحلة الأولى لردبيرن 1849
- السترة البيضاء 1850
- موبى ديك (أو الحوت) 1851
- الكاتب العمومى بارتلبى 1853
- خزاف إسرائيل 1855

★ ★ ★

الفصل الأول

سراب فى الأفق :

سمنى (إسماعيل) .. منذ أعوام ـ لا يهم كم عددها ـ لم يكن معى مال أو كان معى أقل القليل منه ، ولا شىء يستهوينى على اليابسة ، فقررت أن أبحر عبر العالم ، حينما أشعر بالتجهم حول ثغرى ، وحين أشعر برطوبة (نوفمبر) فى روحى ، وحين أجد نفسى أتوقف تلقائيًا أمام مخازن الأكفان وألحق بكل جنازة أراها ، وحين يتملكنى الجموح ، فأحتاج إلى منع نفسى بالقوة من الركض فى الشوارع ، وإطارة قبعات الناس من فوق رءوسهم ؛ فإننى أعرف أن الوقت قد حان للعودة إلى البحر بأسرع ما أستطيع .

هذا هو بديلى لما فعل (كاطو Cato)(*) .. ففى شجاعة فلسفية ألقى بنفسه فوق حد سيفه ، أما أنا فأركب السفينة ، ليس فى هذا شىء مدهش .. وبدرجة ما يحمل أكثر الرجال المشاعر ذاتها نحو المحيط ، وإن بدرجات متفاوتة .

الآن أقدم لك مدينة (مانهاتوس) الساحلية التى يحيطها الثبج وسفن التجار ، عن اليسار واليمين تأخذك الشوارع

(*) ماركوس بورسياس كاطو : قائد رومانى يلقبونه أحيانًا بـ (الأصغر) . كان من خصوم (يوليوس قيصر) وانتحر لدى هزيمته ..

إلى البحر ، انظر إلى زحام الناظرين إلى الماء .. تجوَّب المدينة الحالمة فى عصر سبت ، فماذا ترى ؟ ترى الآلاف فوق الآلاف من الرجال الفانين فى ثياب البحارة .. بعضهم يجلس فوق الدعامات ، وبعضهم ينظر من فوق أبراج سفن جاءت من الصين . ثم ترى رجال اليابسة الذين يطوون أسابيعهم جالسين مكبلين إلى المكاتب ، مسمرين على المناضد .. كيف هذا ؟ أين ذهبت الحقول الخضراء ؟ لكنهم يهرعون إلى البحر .. فتشعر كأنما يجتذبهم المغناطيس فى بوصلة كل السفن الواقفة هنا ..

دع رجلاً شارد الذهن يمشى على قدميه .. ولسوف يقتادك فى النهاية إلى البحر .. دع أبرع الرسامين يرسم لك منظرًا طبيعيًا .. مهما بلغت براعته فإنه لا قيمة للوحة ما لم تتركز عينا الراعى الراقد تحت شجرته على مجرى الماء ..

لو كانت شلالات (نياجرا) جبالاً من الرمال ، فهل كنت تسافر مئات الأميال لتبصرها ؟ لماذا يملك كل صبى سليم الجسد سليم الروح تلك الرغبة المحمومة فى أن يذهب إلى البحر ؟

ألم تشعر فى رحلتك الأولى بتلك الرجفة الصوفية ، حين يخبرونك أن سفينتك ابتعدت عن الأرض ؟ لماذا عبد الفرس القدامى البحر ؟ ولماذا اعتبره الإغريق إلهًا ؟ وماذا عن

قصة (نرجس Narcissus) ؟ الذى فتنته صورته فى الماء فلم يستطع الظفر بها ، من ثم قضى على حياته هناك ..

إنها تلك الصورة التى نراها فى كل الأنهار والمحيطات .. إنها صورة شبح الحياة الذى لا يمكن الإمساك به .. وهذا هو مفتاح كل شىء ..

وحين أقول إننى أذهب للبحر كلما شعرت بضباب فى عينى ، وعسر فى تنفسى ، فإننى لا أريد أن يفهم أحد أننى أذهب للبحر كمسافر ، إن ركاب السفن يصابون بدوار البحر ويحملون حقائب ، ويتشاجرون ولا ينعمون بوقتهم دقيقة ..

كما أننى لا أقصد البحر قبطانًا ولا كومودور ولا طباخًا .. إننى أترك (هيلمان) هذه المناصب لمن يريدونها .. بالنسبة لى أنا أمقت كل الرسميات مهما كانت ، وبرغم أن مهنة الطباخ لا بأس بها ، فإننى أكره شى الدجاج .. برغم أنه ما إن يتم شى الدجاج فعلاً ، ويضاف الزبد والتوابل له ، فإنك لن تجد من يتحدث عن الدجاج المشوى باحترام أكثر منى .

لا .. حين أقصد البحر فأنا أقصده بحارًا بسيطًا .. برغم أنهم يأمروننى ويزجروننى ويجعلوننى أتواثب من صارٍ إلى آخر كأننى جندب فى مرج فى مايو .

فى البداية لا تشعر بسرور لهذا .. إنه يمس إحساسك بالكبرياء خاصة لو جئت من أسرة عريقة على اليابسة .. والأسوأ لو كنت ـ قبل أن تتورط فى هذا ـ معلمًا ريفيًا مما يجعل أطول التلاميذ قامة يحنون رءوسهم أمامك ، حقًا إن التغيير لشديد لكن سرعان ما يزول هذا الامتعاض مع الوقت .

ماذا فى أن يطلبوا منى أن أحضر مكنسة وأنظف سطح السفينة ؟ هل هذا يجعلنى أقل شأنًا أو يقلل ميزانى عند الله ؟ من منا ليس عبدًا ؟ قل لى .. لهذا مهما طلب منى ووبخنى الضباط فإننى أعرف أن هذا لا بأس به .. كلنا عبيد بشكل أو بآخر سواء على المستوى البدنى أو الميتافيزيقى ، وعلينا أن نربت على أكتاف بعضنا ، ونرضى ..

بالإضافة لهذا أرى البحر برؤية بحار لأنهم يدفعون للبحار ثمن معاناته للمسافرين مليمًا . وعلى العكس .. المسافرون يدفعون ، وما أكبر الفرق بين أن تدفع وأن يدفع لك !! من المثير أن ترى كم أن تقاضى المال ممتع ، برغم أن الناس جميعًا تؤمن أن المال هو سبب مشاكل العالم .. غريب أن ترى مدى الترحاب الذى نسلم به أنفسنا إلى الخراب !

أما آخر أسباب حبى لمهنة البحار ، فهو أننى أتلقى الهواء نقيًا طازجًا ، بينما القبطان أو أمير البحر يتلقى هواءه مستعملاً بعدما استنشقه البحارة ..

أما لماذا قررت أن أركب البحر هذه المرة على سفينة صيد حيتان ، فهذا يعود إلى يد القدر التى تتحكم فىَّ ، والتى سيطرت على كل شىء فى حياتى ، فهى من يعرف الإجابة على الأسئلة ، وأعتقد أنها زينت لى الأسباب التى جعلتنى أختار هذا الدور بالذات ، حاسبًا طيلة الوقت أن الاختيار تم بإرادتى الحرة .

من بين هذه الأسباب وأهمها فكرة الحوت العظيم ذاتها .. هذا الوحش الهائل الغامض حرك كل فضول لدى .. البحار القصية المتوحشة حيث يسبح ، والمشاهد والأصوات التى لا يمكن وصفها فى البحار الجنوبية .. إن الرغبة فى الأشياء البعيدة تعذبنى دومًا .. أحب أن أبحر فى البحار الممنوعة .. وأهبط فوق الجزر المتوحشة .

لهذا رحبت برحلة صيد الحيتان .. وانفتحت أبواب سدود العالم السحرى ، ومنها طفت فى أعماق روحى مواكب من الحيتان ، ووسطها أرى شبحًا عملاقًا يغطى رأسه بكبود ، كأنه جبل جليدى يرتفع فى الهواء .

★ ★ ★

الفصل الثانى

فى الحانة :

وضعت قميصًا أو اثنين فى حقيبتى العتيقة ودسستها تحت ذراعى ، ثم اتجهت إلى (كيب هورن) والمحيط الهادى تاركا مدينة (مانهاتو) الطيبة ، ووصلت إلى (نيو بدفورد) .. كانت ليلة سبت فى ديسمبر ، وضايقنى أن سفينة البريد المتجهة إلى (نانتوكت) قد أقلعت .. وأنه ما من سبيل سوى الانتظار حتى يوم الاثنين ، كنت مفتونًا بكل شىء يمت لـ (نانتوكت) بصلة ، برغم أن (نيو بدفورد) قد احتكرت مهنة صيد الحيتان ، لكن (نانتوكت) ظلت تمثل الأصل الساحر لهذه المهنة . إنها المكان الذى علق فيه أول حوت صيد فى أمريكا . من أين إن لم يكن من (نانتوكت) ، خرج هؤلاء الرجال الحمر الأصليون فى قواربهم الصغيرة ، ليصيدوا إفعوان البحر ؟

الآن كان أمامى يوم وليلتان فى (بدفورد) قبل أن أتجه إلى مقصدى ، كانت الليلة تبدو كئيبة مقلقة .. باردة خالية من البهجة ، خاصة أننى لا أعرف أحدًا هنا .. تحسست جيبى فلم أجد إلا بعض قطع الفضة .. إذن إلى أين تذهب يا إسماعيل ؟ الجهامة فى الشمال والظلام فى الجنوب .. فأين تمضى الليلة ؟

مشيت فى الشوارع أتحاشى كل خان بدا لى فاخرًا أو غاليًا .. وهكذا بالغريزة وجدت أننى أتجه نحو البحر ، حيث هناك بالتأكيد أرخص ـ ما لم تكن أسعد ـ الحانات .

يا للشوارع المخيفة ! كتل من الظلام لا البيوت على جانبى الطريق ..

فى النهاية وصلت قرب الميناء فوجدت ضوءًا شاحبًا ، ورفعت رأسى لأرى لافتة عليها رسم يمثل دخانًا أبيض ينبثق ، وقد كتب عليها (حانة زفير الحوت ـ بيتر كوفين) .

(كوفين) ؟ هذا اسم يوحى بالتشاؤم لكنه شائع فى (نانتوكت)(*) .. لربما جاء (بيتر) هذا من هناك .. وأدركت من فقر اللافتة والبيت الخشبى ذاته أن هذا المكان رخيص ، الريح التى تسمى (إيوروكلايدون) قاسية تعصف محدثة صوت عواء يذكرنى بقول قديم : يختلف استقبالك للريح بين أن تشاهدها من وراء نافذة مغلقة والثلج على جانبى الزجاج ، وبين أن تشاهدها من وراء النافذة التى هى عيناك .. هذا صحيح .. أنا بيت وعيناى نافذتان ..

لكن لا وقت لهذا الكلام الآن .. نحن ذاهبون لصيد الحيتان .. دعنا نزل الثلج عن أقدامنا المتجمدة ونرَ ما هذه الحانة ..

(*) كوفين Coffin معناها (تابوت) فى الإنجليزية ..

* * *

ما إن تدخل الحانة ، حتى تجد الكثير من خشب البلوط الذى يذكرك بأعمال نحت قديم منسى ، هناك لوحة زيتية يغطيها الدخان بعناية ، بحيث إنك تحتاج لأن تراها عدة مرات ، وتسأل الجيران عنها إلى أن تصل لفهم ما الموجود فيها ، على الجدار المواجه ترى عشرات الرماح والهراوات ، بعضها مزدان بأسنان حادة كأنه مشط من عاج ، وبعضها مزدان بشعر آدمى ، حتى لتتساءل عن آكل لحوم البشر العملاق الذى خرج يومًا ينشر الموت بأسلحة كهذه ..

هناك عظمة مقوسة عملاقة لحوت تم وضع البار فيها ، كأنما زجاجاته هى أسنان هذا الوحش .. وعدد من البحارة الشبان ، يحتشدون حول منضدة يتفحصون عينات من الصيد ، فبحثت عن صاحب الخان ، وأخبرته أننى أرغب فى المبيت عنده .. قال لى إن المكان ممتلئ بالكامل .

ـ « لكن .. انتظر .. ليس عندك اعتراض على أن تشارك أحد رماة (الحربون) فراشه .. أليس كذلك ؟ ما دمت ذاهبًا لصيد الحيتان ، فعليك أن تعتاد هذا .. » .

قلت له إننى لم أعتد قط أن أنام مع أحد فى فراش واحد ، فإن كنت مرغمًا ؛ فهذا يتوقف على رامى الحربون نفسه ، لو لم يكن لديه اعتراض فأنا أقبل مشاركة أى رجل محترم فراشه .

قال الرجل :

ـ «ظننت هذا .. هلم اجلس .. عشاء ؟ هل تريد عشاء ؟ سيكون معدًا حالاً .. » .

بعد قليل نادوا أربعة رجال منا إلى الغرفة المجاورة .. كانت باردة مثل (أيسلندا) ، لأن صاحب الخان قال إنه لا يملك مالاً للتدفئة .. لم تكن هناك سوى شمعتين ، فعقدنا أزرار ثيابنا ، ورفعنا لشفاهنا أقداح الشاى الساخن .. لكن الطعام كان رائعًا .. ليس لحمًا وبطاطس فقط .. بل زلابية كذلك ! رباه ! زلابية للعشاء ! والتهم بحار شاب الكثير منها ، فقال له صاحب الحانة :

ـ « أيها الشاب .. سترى كابوسًا فى منامك حتمًا .. » .

قلت له :

ـ « ياصاحب الخان .. كيف يبدو رامى الحربون هذا ؟ » .

بدا لى مستمتعًا بالموقف ، وقال :

ـ «آه .. إنه شاب كالح الوجه ولا يأكل الزلابية .. لا يأكل إلا شرائح اللحم ويفضلها نيئة ! »

ـ « ياللشيطان ! وأين هو ؟ هل هو معنا هنا ؟ » .

ـ « سيأتى قريبًا .. » .

بدأت أقلق بصدد رامى الحربون (كالح الوجه) هذا وقررت أنه لو كان على المبيت معه ، فيجب أن يدخل الفراش وينام قبلى .

انتهى العشاء فعدنا إلى البار ، وأزمعت أن أقضى الليل فى مراقبة هؤلاء القوم .

فى هذه اللحظة وصلت سفينة صيد حيتان من جزر (فيجى) ، وكان هذا الخان هو أول موضع يدخله بحارتها .. فلا عجب أنهم بدوا والجليد يتخلل لِحَاهم كأنما دببة قطبية من (لبرادور) .. وسرعان ما عمت الضوضاء والصخب ..

ولقد لاحظت بين هؤلاء البحارة رجلاً أميل إلى العزلة ، لا يبدو ميالاً إلى أن يعكر صفو رفاقه بوجهه الرصين .. أثار هذا الرجل انتباهى لحظتها ، لكن لأن الأقدار كانت ترتب أن يكون رفيقى فى السفر ، فإننى سأصفه بتفصيل أكثر .

كان طوله ستة أقدام ، وله كتفان نبيلتان .. لم أر رجلاً بهذا التكوين العضلى من قبل .. وجهه قاتم مما يعطى أسنانه بياضًا غير معتاد ، صوته حين تكلم يشى بأنه جنوبى ، وقد اختفى وسط الزحام ، وبدا أن الرجال يفتقدونه فراحوا يتصايحون :

ـ « (بلكنجتون) .. أين (بلكنجتون) ؟ »

والآن تجاوزت الساعة التاسعة وهدأ هذا الصخب .. وبدأت أهنئ نفسى على الخطة التى أزمعتها قبل دخول البحارة .. لا أحد يطيق أن يشارك شخصًا آخر الفراش .. بل إنك لا تطيق أن تشارك أخاك فراشه .. لا أعرف السبب لكن الناس يحبون الخصوصية حين ينامون ، وحينما يتعلق الأمر بالنوم مع غريب فى حانة غريبة فى بلدة غريبة .. وهذا الغريب يقذف الحربون ، عندها يتزايد اعتراضك على الفكرة .. إن البحارة ينامون جميعًا فى مكان واحد ، لكن فى النهاية لك كيس نومك وغطاؤك الخاص .. ولا أحسب أن رامى الحربون هذا سيكون آية فى النظافة ..

قلت لصاحب الحانة :

- «يا صاحب الحانة .. لقد غيرت رأيى بصدد النوم مع رامى الحربون .. سأنام هنا على هذه الدكة .. »

هنا فكر الرجل فى أن يحضر لوحًا خشبيًا ليصير لى فراشًا .. أحضر منديلاً ونظف اللوح من التراب ، وهو مقطب الوجه كقرد .. لكنى بالفعل لم أستطع أن أصل إلى وضع مناسب للنوم ، وكان الهواء البارد يتسرب من النافذة .. بينما إحدى الدكتين كانت أقصر من اللازم والأخرى أضيق من اللازم ، ورحت أفكر بأنه من الأفضل أن أنتظر حتى أرى رامى الحربون هذا .. فلربما بدا لى لطيفًا ..

لكن الساعة بلغت الثانية عشرة ولم يظهر رامى الحربون هذا ، وسألت الرجل عنه .. هل هو دائمًا يتأخر فى النوم إلى هذا الحد .. فضحك ضحكته المكتومة وقال :

- «بالعكس .. هو طائر مبكر .. يصحو مبكرًا وينام مبكرًا .. لكنه الليلة ذهب للتجارة .. ولا أعرف لماذا بحق السماء قد تأخر إلى هذا الحد .. ربما لا يستطيع أن يبيع رأسه .. » .

تصاعد غضبى :

- «لا يستطيع بيع رأسه ؟ ما هذه القصة التى تحكيها لى ؟»

- «القصة هكذا فعلاً .. وقد أخبرته أنه لن يبيعه هنا .. فالسوق مزدحم بالبضاعة .. » .

صحت :

- «بماذا ؟»

- «بالرءوس طبعًا .. ألا ترى الكثير من الرءوس فى العالم ؟» .

- «ألن تكف عن المزاح ؟ أنا لست معدوم الخبرة أو أخضر !»

- «لا أعرف لونك لكن أؤكد أنك ستنتهى بنى اللون ، لو سمعك رامى الحربون تتهكم على رأسه !!»

قلت له محاولاً أن أتعقل :

ـ «جئت دارك يا صاحب الخان فعرضت على نصف فراش مع رامى الحربون هذا .. الآن أريد أن أعرف كل شىء عنه .. وأن أعرف هل أكون فى أمان معه .. لكن لا تردد من فضلك قصة بيع الرأس هذه التى تجعلنى أعتقد أنه مجنون تمامًا .. »

قال الرجل :

ـ «خطبة جميلة بالنسبة لشاب مثلك .. لكن رامى الحربون الذى حكيت لك عنه جاء من البحار الجنوبية مع مجموعة من الرءوس المحنطة من (نيوزيلاند) .. وقد باعها جميعًا ما خلا واحدًا .. لكن غدًا الأحد وهو لن يبيع رءوسًا آدمية فى الشارع بينما الناس يقصدون الكنيسة .. كان ينوى ذلك الأحد الماضى لكنى منعته من مغادرة الحانة حاملاً خمسة رءوس مربوطة بخيط كأنها حزمة بصل » .

هنا فهمت أن الرجل لا يخدعنى أو يسخر منى ، لكن كيف أتعامل مع رامى حربون يقضى ليلة السبت المقدسة فى بيع رءوس همج محنطة ؟

قال لى صاحب الحانة :

ـ «إنه فراش واسع .. دعنى أرك إياه .. »

وحمل شمعة وتقدمنى .. لكنى وقفت مترددًا وعينى على ساعة فى الركن .. فهتف بى :

ـ «إنه الأحد الآن .. أعتقد أنك لن ترى رامى الحربون هذه الليلة .. لابد أنه فى مكان ما .. هلم معى إذن .. »

فكرت فى الأمر ثم تبعته إلى الطابق العلوى .. فى النهاية وجدت أننى فى غرفة صغيرة باردة كالحلزون ، وبها فراش هائل الحجم يمكن أن ينام فيه أربعة من رماة الحربون ، وضع لى الشمعة على صندوق يصلح فى الوقت ذاته كمنضدة .. وحيانى وانصرف .

طويت اللحاف واندسست فى الفراش .. ليس الأفخم لكنه مر بالامتحان السريع الذى عقدته له ، فيما عدا هذا لم أر أى أثاث إلا لوحة تمثل رجلاً يقتل حوتًا ، هناك حربون يستند إلى نهاية الفراش ، ومجموعة من الشص المصنوعة من عظام الأسماك ، لكن ما الذى يوجد فى هذا الصندوق ؟

غصت فى الفراش وتركت نفسى لعناية الله ..

لا أعرف إن كانت الحشية مليئة بقطع الفخار المهشمة لكنى لم أستطع النوم لفترة طويلة ، لكنى بعد فترة غبت فى غفوة خفيفة وكدت أغوص فى النوم أكثر ، لولا أن سمعت صوت خطوات ثم التمع ضوء من ناحية الباب .

فليحمنى الله .. لابد أن هذا هو رامى الحربون .. تاجر الرءوس الجهنمى .

حاملاً شمعة فى يد وذلك الرأس النيوزيلندى فى أخرى ، دخل ذلك الرجل الحجرة ، فلم يلق نظرة على الفراش .. إنما راح يفك رباط الحقيبة الملقاة فى الركن .

كنت أتحرق لرؤية وجهه .. وبعد قليل رأيته .. رباه ! يا له من مشهد ! كان له لون مصفر داكن رسمت عليه مربعات كبيرة هنا وهناك .. كنت على حق .. إنه أسوأ شريك فراش ممكن .

تذكرت قصة عن رجل أبيض وقع فى قبضة أكلة لحوم البشر .. وقد رسموا له هذا الوشم .. هذا لايهم .. لكن ماذا عن منظره المخيف تحت هذا الوشم ؟ لم أسمع قط عن أن الشمس لوحت وجه رجل أبيض ليكسب هذا اللون المصفر الغريب .. على كل حال أنا لم أكن قط فى البحار الجنوبية .

رأيت الرجل يمسك بالرأس النيوزيلندى ويضعه فى الحقيبة ، ثم نزع قبعته .. لم يكن هناك شعر فى رأسه .. لاشىء سوى عقدة صغيرة فوق جبهته .. فبدت رأسه كأنها جمجمة يغطيها العفن .. فلو لم يكن يسد الطريق بينى والباب لجريت هاربًا بلمح البصر .

إن ما أراه من هذا الغريب ليفوق فهمى ، والجهل هو صنو الخوف ، أقسم أننى أخاف الغريب كما أخاف الشيطان ذاته لو تسلل لحجرتى فى قلب الليل .

بدأ ينضو ثيابه فرأيت صدره وظهره .. نفس المربعات السوداء على هذه الأجزاء المغطاة .. من الواضح أنه متوحش وليس صائد حيتان فى البحار الجنوبية ، إنه تاجر رءوس .. ربما رءوس إخوانه أنفسهم .. ربما يروق له رأسى كذلك ! رباه ! ألا ترى هذه البلطة التى يحملها ؟

من جديد راح يعبث فى حقيبته ثم أخرج تمثالاً أسود اللون ، حسبته فى البدء طفلاً إفريقيا محنطا .. ثم رأيت الطريقة التى يلتمع بها ففهمت أنه وثن .. اتجه إلى المدفأة الخالية فوضع هذا التمثال الصغير الأحدب بين مساند الحطب ، فعرفت أنه يجعل من هذا المكان معبدًا وثنيًا له ، أخرج من حقيبته بعض البسكويت واتجه إلى الصنم .. وبدا لى كأنما هو يقدم بعض البسكويت لهذا الصنم ، لكن الوثن لم يبال كما يبدو ولم يحرك شفتيه .

طيلة هذا الوقت لم يكف عن ترديد صوت حنجرى خفيض فأدركت أنه يغنى أغنية وثنية دينية ما ، بينما هو يحرك وجهه بأغرب الطرق الممكنة ، ثم انتهت هذه الطقوس فحمل الصنم فى إهمال هذه المرة ، وألقى به فى حقيبته غير مكترث .

الآن بدا لى بوضوح أنه أنهى طقوسه الغريبة ، وأنه سيدخل الفراش ، فقررت أن أحطم حالة الشلل التى اعترتنى .. رأيته يتناول الغليون فيدسه فى فمه ثم ينفث سحابًا كثيفًا من الدخان

نحو الباب ، وفى اللحظة التالية انطفأ الضوء وغاص آكل لحوم البشر فى الفراش جوارى والغليون فى فمه .

هنا صرخت .. فمد يده فى الظلام يتحسسنى ، قلت شيئًا لا أعرف ما هو ثم وثبت إلى الجدار ، فقال لى :

ـ « من .. الشيطان .. أنت ؟ لا تتكلم .. لعنة .. قتلك ! » .

وازداد توهج الغليون فبدأ يلتمع من حولى فى الظلام ..

ـ « يا صاحب الخان ! بالله عليك ! أنقذنى !! »

عاد الرجل يغمغم :

ـ « تتكلم .. لعنة .. قتلك ! »

هنا ولله الحمد دخل صاحب الخان الغرفة .. فوثبت نحوه من فوق الفراش .. قال لى ضاحكًا :

ـ « لا تخف .. إن (كويكونج) لن يمس شعرة من رأسك .. »

ـ « كف عن الضحك .. لماذا لم تخبرنى أن رامى حربونك هذا آكل لحوم بشر ؟ »

ـ « حسبتك تعرف .. ألم أخبرك أنه يبيع رءوسًا بشرية ؟ »

ثم وجه الكلام للمتوحش :

ـ « .. (كويكونج) .. هذا رجل ينام معك .. »

أشار (كويكونج) نحوى بطرف الغليون وأزاح الأغطية ، وقال :

ـ « أنت .. تدخل .. تدخل .. »

فعلها بنوع من التهذيب .. فوقفت أنظر له .. برغم كل شىء كان آكل لحم بشر مهذبًا نظيفًا ..

لماذا أحدثت كل هذه الضوضاء ؟ الرجل بشرى مثلى .. من الأفضل أن تنام مع آكل لحم بشر عاقل عن شخص متمدين ثمل ..

قلت لصاحب الخان :

ـ « قل له أن يتخلى عن هذا الغيلون .. من الخطر أن ينام المرء والغليون فى فمه .. هذا خطر .. »

فما أن سمع (كويكونج) الطلب حتى ترك الغليون ، وقال وهو يندس فى الفراش :

ـ « لن ألمس قدمًا منك .. »

قلت :

ـ « عمت مساء يا صاحب الخان .. »

ونمت نومًا عميقًا لم أذقه فى حياتى قط ..

* * *

الفصل الثالث

الشارع :

حين أفقت فى الصباح وجدت أن (كويكونج) قد لف ذراعه حولى فى حب ومودة كأننى زوجته ، وقد امتزجت مربعات الوشم على ذراعه بالمربعات على اللحاف ، حتى إننى لم أتعرف الذراع إلا من ثقلها ، وحاولت أن أزيح ذراعه الوثنية الثقيلة ، لكنى لم أستطع .. شعرت بالرعب وحاولت إيقاظه فكانت إجابته الوحيدة هى المزيد من الغطيط ..

فى النهاية استجاب لندائى المتكرر ونفض نفسه ككلب مبتل من (نيوفاوندلاند) وجلس فى الفراش .. وراح يفرك عينيه كأنما يتساءل عن سبب مجيئى هنا .. أخيرًا بدأ يفهم فنهض من الفراش وأشار لى بما معناه أنه - لو أردت - يمكن أن يرتدى ثيابه أولاً ويترك لى الحجرة ، كى أرتدى ثيابى منفردًا .. الحقيقة أن أغلب هؤلاء المتوحشين لديهم إحساس شديد باللياقة .. ولسوف يدهشك أن ترى كم هم مهذبون .. لقد عاملنى بهذه اللياقة بينما كنت أنا فى الفراش أنظر له فى غلظة ورعب .. لقد غلب الفضول أى تهذيب لدى .. أنت لاترى رجلاً مثل (كويكونج) كل يوم .

بدأ يلبس ثيابه بشكل منتظم .. قبعته أولاً وقبل أى شىء آخر .. ثم بحث عن حذائه .. ثم دخل تحت الفراش وراح يئن ويجاهد ليرتدى الحذاء ، وهو شىء لم أفهمه قط .. منذ متى يجب على الإنسان أن يلبس حذاءه فى خصوصية بعيدًا عن الأعين ؟ لكن (كويكونج) كان فى مرحلة تحول من متوحش إلى شخص متحضر .. لم يكن قد تخرج بعد ولا يمكنك فهم تصرفاته جيدًا .. لو كان أقل تحضرًا لما اهتم بارتداء حذاء ، ولو كان أقل توحشًا لما دخل تحت الفراش لينتعل حذاءيه .. وقد راح يجوب الغرفة بمظهره الغريب ، حتى توسلت إليه أن يسرع بارتداء سرواله فاستجاب ..

راح يغسل ، لا وجهه ، لكن صدره وذراعيه ويديه .. ثم أخرج الحربون وفك الغطاء عن قمته ، ووقف أمام المرآة الصغيرة المهشمة وراح يحك ذقنه ليحلقها برأس الحربون .. فيما بعد ازددت دهشة حين عرفت من أى نوع صلب جيد يصنع الحربون ، وكم أن حوافه حادة بشكل لا يصدق ..

فى النهاية انتهى من زينته فغادر الحجرة فخورًا .. والحربون فى يده كأنه عصا الماريشالية ..

* * *

بدأ النزلاء يتجمعون فى الطابق السفلى من الحانة ، واستطعت أن أميزهم واحدًا واحدًا وأقدر كم بقى كل منهم على اليابسة .. دعانا صاحب الخان إلى الإفطار فدخلنا قاعة الطعام .. يقولون إن السفر ورؤية العالم يجعلانك أكثر ثقة بالنفس لكنى لم أر هذا فى أولئك الرجال .. هناك اثنان كانا مرتبكين بشدة .. الأول جاب سيبيريا على زحافة تجرها الكلاب ، والثانى جاب إفريقيا وسط القبائل البدائية .. فعرفت أن هاتين الخبرتين ليستا أفضل ما يتعلم منه المرء قواعد اللياقة .. والأغرب هنا أن الصمت كان يلف هؤلاء الرجال بشكل مريب .. كلاب البحر هذه التى جابت العالم ، وقتلت مئات الحيتان فى مياه غريبة ، لا تشعر براحة فى مناسبة اجتماعية تافهة مثل تناول الإفطار .. غريب حقًا أمر هذه الدببة الخجول !

أما عن (كويكونج) فلا يستطيع أعظم المعجبين به أن يبرر إحضاره الحربون إلى مائدة الإفطار ، واستعماله فى الأكل .. بل أن يطوح به فوق الرءوس ليلتقط شرائح اللحم .

لن أتكلم عن أسلوب (كويكونج) ولا كيف ترك القهوة والكعك واكتفى بشرائح اللحم النيئ ، ولا كيف نهض بعد الإفطار ليدخن غليونه فى البار ، وقبعته لم تفارق رأسه لحظة .

* * *

ذهبت إلى كنيسة البلدة فحضرت الصلاة ، ثم عدت إلى الخان .. هناك وجدت (كويكونج) جالسًا جوار النار وقد فرد ساقيه نحوها .. كان يمسك كتابًا وإن كان لا يعرف القراءة طبعًا .. كان يعد خمس عشرة صفحة ثم يتوقف ويشهق فى دهشة ، ثم يبدأ العد من جديد .. إنه مندهش من كم (الخمس عشرات) من الصفحات التى يحتويها هذا الكتاب بين دفتيه ، وأدركت أنه لا يلاحظ وجودى على الإطلاق ..

لم يكن منفرًا إلى الحد الذى شعرت به أولاً ، ورأيت فى عينيه ألفة يمكن أن تعتادها ..

غريب أمر هذا المتوحش .. لقد جاء من بلاد قصية ، وهو هنا فى بلد غريبة بين قوم غريبين عنه ، لكنه برغم هذا ينعم بالسلام النفسى .. تلك الفلسفة الحكيمة الفطرية لدى هؤلاء القوم كأنها فلسفة (سقراط) نفسه برغم أن الرجل لم يسمع قط بشىء اسمه فلسفة .

سأجرب صداقة هذا البدائى ما دامت صداقة المتمدينين ليست سوى تفضل منهم نحوى .

دنوت منه ورحت أصدر أصواتًا وحركات توحى بالمودة ..

فسألنى إن كنت سأشاركه الفراش هذه الليلة ، ورحت أقلب معه صفحات الكتاب أحاول أن أفهمه معنى الصور الموجودة .. ثم عرضت عليه أن ندخن فأخرج غليونه وملأه لى بالطباق ورحنا نتبادل التدخين .. فلو كانت هناك بقايا من الجفاء بيننا فقد ولت مع هذا التدخين الاجتماعى .. فى النهاية قال لى إننا صرنا صديقين وإنه مستعد للموت من أجلى إذا اقتضت الظروف .. لو كان هذا رجلاً ريفيًا لكان وهج الصداقة هذا أسرع مما ينبغى ، ولأثار الريبة فى نفسك .. لكن هذه القواعد لا تنطبق على البدائيين .

بعد العشاء دخلنا الغرفة فقدم لى رأسه المحنط هدية ، ثم أخرج من حاجياته ثلاثين قطعة فضية فقسمها نصفين متساويين ناولنى أحدهما .. كدت أحتج لكنه أسكتنى بأن فتح جيبى ودس فيه قطع الفضة .

ثم انهمك فى صلوات المساء لمعبوده الوثنى ، وشعرت أنه ينبغى أن أشاركه العبادة .. لكنى مسيحى متدين ولدت ونشأت فى الكنيسة المعمدانية ، وخطر لى أننى فى وقت ما قد أجعل (كويكونج) ينضم لكنيستى .

ودخلنا الفراش .. لكننا لم نخلد للنوم قبل أن نتبادل الثرثرة بعض الوقت ..

* * *

الفصل الرابع

قصة حياة .

لم نستطع النوم وبدا أن النعاس فارقنا بعد قليل ، وهكذا شعرنا أن وضع الرقاد آلم ظهرينا .. جلسنا .. إن كل شىء يظهر بنقيضه .. لهذا لم ندرك ما نحن فيه من دفء إلا حين شعرنا البرد فى أطراف أنوفنا .. بالمثل لا يمكنك أن تغبط نفسك على الراحة لأنه لا معنى للراحة ما لم تعرف التعب ..

أغمضت عينى .. وهى الطريقة التى نرى بها أرواحنا .. كأنما الظلام جزء من سر وجودنا ذاته .. بينما الضوء يناسب كياننا الطينى أكثر .. ووجدت أن تدخينه الغليون قد يكون مناسبًا الآن ! هذا هو الفارق بين الصداقة وبين عدم المعرفة .. ما بدا لى منفرًا كريهًا أمس بدا لى محببًا اليوم ..

هكذا دخنا حتى انعقدت فوقنا سحابة زرقاء يضيئها المصباح ..

راح يتكلم عن وطنه .. وبرغم أننى لم أفهم الكلام كله آنذاك إلا أننى فيما بعد اعتدت لكنته المهشمة ، وأمكننى أن أعرف القصة متكاملة .

* * *

كان (كويكونج) من أهالى (كوكوفوكو) .. جزيرة جنوبية غربية لكنها لم ترسم على أية خارطة .. كل الأماكن الحقيقية لا ترسم على الخرائط .. أبوه كان ملكًا بينما عمه كان كاهنًا .. إن فى عروقه دمًا ملكيًا ممتازًا ، لكنه كان يحلم بزيارة العالم المتحضر .. وذات يوم رست سفينة على الشاطئ لكن بحارتها رفضوا أن يركب معهم .. لهذا ركب قاربًا صغيرًا وأبحر فى خط مستقيم نحو نقطة يعرف أن السفينة ستمر بها ..

من ثم انتظر حتى مرت به السفينة وبركلة واحدة أغرق القارب الذى جاء فيه ، وتسلق سلاسل السفينة وصعد لسطحها وأقسم أنه لن يتركها إلا ممزقًا ، هكذا اضطر القبطان إلى السماح له بالصعود لكنه أبقاه مع البحارة .. وهكذا تعلم الفتى كيف يكون صائد حيتان .. كان يتمنى أن يتعلم كيف يجعل قومه أسعد وأهنأ لكنه وجد أن المتمدينين أنفسهم يعانون مشاكل عدة .. لقد رأى كيف ينفق البحارة رواتبهم وماذا يفعلون ، وقرر أن هذا العالم عالم شقى ملىء بالشرور أينما ذهب ، وعرفت أنه مازال على دينه الوثنى السابق .

سألته لم لا يعود إلى وطنه ، ويحظى بالتتويج مادام أبوه قد

مات على الأرجح ، لكنه قال إن الوقت لم يحن بعد .. سيجوب أركان العالم ويتعلم أكثر ويبيع بضاعته .. أخبرته بنيتى فى تعلم صيد الحيتان ، وإننى أقصد (نانتوكت) لهذا الغرض .. فوافق على أن يصحبنى إلى تلك الجزيرة ، بل أن يركب معى نفس السفينة .. وقد وافقت فى حماس لأنه صار صديقًا عزيزًا ، كما أنه كان رامى حربون ذا خبرة .. فأنا أجهل كل شىء عن الحيتان بينما خبرتى واسعة بصدد الملاحة التجارية .

فى الصباح التالى تخلصت من الرأس المحنط إذ أعطيته لحلاق ليستعمله قالبًا .. ودفعت حسابى وحساب صديقى بنقوده طبعًا .. وكان صاحب الخان مندهشًا من الصداقة التى ولدت بينى وبين (كويكونج) خاصة بعد القصص المخيفة التى حكاها لى عن رامى الحربون .

ثم حملنا حاجياتنا وركبنا (الأشنة) أو القارب الصغير الذى يتجه إلى (نانتوكت) .. وراح الناس يرقبوننا فى دهشة .. ليس بسبب (كويكونج) فهم اعتادوا رؤية أكلة لحوم البشر فى شوارعهم ، ولكن بسبب رؤيتى معه .. لكننا لم نبال بهم .

سألته عن السبب الذى يجعله يحمل الحربون معه .. ألا يوجد حربون فى سفن صيد الحيتان ؟ فقال إنه يحب حربونه الخاص .. وإن لهذا الحربون علاقة خاصة مع قلوب الحيتان .. إنه يعرفه ويعرف معدنه ولم يخذله قط ..

رحنا ننعم برحلتنا شاعرًا بتلك النشوة التى تغمرنى كلما رأيت البحر ، بينما الأشنة تحنى رأسها للماء من حين لآخر كجارية أمام السلطان .. أملأ صدرى بالهواء ..

لم نحتك بأحد من ركاب القارب ، لكن (كويكونج) أمسك ذات مرة ببحار أخرق يقلده من وراء ظهره .. هنا أدركت أن ساعة هذا البحار قد حانت .. لقد رمى (كويكونج) الحربون الذى يمسك به ، ثم أمسك بذراع الفتى وطوح به فى الهواء .. ثم تركه يسقط واستدار ليشعل غليونه ويعرض على بعض الطباق .

جرى البحار الأحمق نحو القبطان وهو يصرخ :

ـ «كابتن .. كابتن ! إن الشيطان هنا ! »

قال القبطان المحنك :

ـ «مرحبًا يا سيدى .. لماذا فعلت هذا بذلك الشاب ؟ كان من الممكن أن تقتله .. »

سألنى (كويكونج) :

ـ «ماذا هو يقول ؟ »

ـ «يقول إنك كدت تقتل الفتى .. »

ـ «لا .. لا .. سمكة صغير هو .. سمكة صغير .. (كويكونج) يقتل سمكة صغير لا .. حوت كبير نعم .. » .

فى النهاية وبعد رحلة تخللتها بعض المتاعب مع البحر ، وصلنا إلى (نانتوكت) ..

★ ★ ★

الفصل الخامس

نانتوكت :

(نانتوكت) ! خذ خارطة وانظر إليها .. تأمل موضعها من العالم .. رمال فى كل مكان .. مجرد شاطئ لا شىء وراءه .. سيقولون لك مازحين إنهم يستوردون الأعشاب الشيطانية ذاتها .. فلانبات ينمو هنا ، يقولون إن حزمة أعشاب تعنى واحة هنا .. وثلاث حزمات تعنى نزهة فى البرارى .. يقولون إنهم يلبسون أحذية رمال تشبه أحذية الجليد .. كل هذه مبالغات لكنها تدلك على أن (نانتوكت) ليست (إلينوى) ..

تقول الأسطورة إن نسرًا اختطف طفل زوجين همجيين ، وطار فوق المحيط ، فركب الزوجان قاربًا ليلحقا به .. أخيرًا وصلا إلى هذه الجزيرة حيث وجدا عش نسر فيه الهيكل العظمى لابنهما ، ومن تلك الحين عاشا فى البحر أبدًا .. هؤلاء القوم لا يعرفون اليابسة ، وهى بالنسبة لهم غريبة غرابتها على رجل القمر .. إنهم لا يبالون بتقلبات الحياة على اليابسة ، ولا يخافون الفيضانات التى يرتجف من هولها ملايين الصينيين .. إنهم سادة البحر وأبناؤه أبد الدهر ..

فى المساء هبطت و(كويكونج) فى المرفأ .. وكان صاحب الخان فى (بيدفورد) قد أوصانا بالذهاب إلى ابن عمه (هوسيا هوسى) الذى يملك ـ كما قال ـ واحدًا من خير الفنادق فى (نانتوكت) ، واسمه (تراى بوت) ـ ومعناها (جرب هذا القدر) ـ وإن وصف لنا مكان الفندق مستعملاً ألفاظ (الميمنة) و(الميسرة) مما سبب لنا الكثير من المشقة فى العثور على المكان ..

تشاءمت حين رأيت الفندق لأن تصميمه مع الأشجار المحيطة به ذكرنى بالمشنقة ، وكنت حساسًا لهذه الأمور وقتها .. (كوفين) فى أول ليلة لى فى (بدفورد) ومشنقة هنا ! شعرت بتقلص فى عنقى وأنا أنظر إلى هذا الفندق ..

لم يكن مستر (هوسى) موجودًا لكن زوجته كانت تدير المكان ببراعة .. وطلبنا المبيت وعشاء ..

قدمت لنا محارًا ممتازًا مما أغرانى أن أطلب بعض لحم الحوت كذلك .. كان الطعام لذيذًا متبلاً بعناية .. هنا كنت تأكل السمك فى كل الوجبات حتى توشك أن ترى عظام السمك تبرز من تحت قميصك .. حتى اللبن كان له طعم السمك ، وهو ما لم أجد له تفسيرًا ، حتى رأيت بقرة المستر (هوسى) على الشاطئ تأكل بقايا الأسماك .. أؤكد لك هذا ..

فرغنا من العشاء فصعدنا لغرفتنا ، لكن المرأة أصرت على ألا يصحب (كويكونج) الحربون معه لأنه خطر .. إنها لا تترك نزلاءها ينامون بالحربون فى غرفهم أبدًا ..

* * *

قضينا الأيام التالية فى البحث عن سفينة صيد حيتان مناسبة ، وكان يعتمد فى اختياره على ذلك الصنم (يوجو) الذى يحمله والذى يسترشد برأيه فى كل شىء .. لكنه كان يتعامل معه بحذر باعتباره حسن النوايا عامة ، لكن لا يمكن أن تثق فيه بشكل مطلق .

كانت هناك ثلاث سفن تتأهب لرحلة مدتها ثلاثة أعوام .. (سد الشيطان) .. (حفرة العصفور) .. (بيكود) .. لا أعرف مصدر اسم السفينة الأولى ، لكن اسم الثالثة ـ كما لابد أنك تتذكر حتمًا ـ هو اسم قبيلة هندية شهيرة من (ماساشوستس) ، انقرضت الآن ..

تجسست على السفن الثلاث ثم قررت فى النهاية أن (بيكود) هى السفينة التى أبحث عنها من البداية .. لا بد أنك رأيت سفنًا كثيرة لكن خذ كلمتى فى هذا الصدد .. لن ترى أبدًا مثل هذه السفينة .. كانت من المدرسة القديمة فى السفن .. صغيرة لها شكل عام يذكرك بالقدم المقوسة .. اصطبغت بلون الأعاصير والفصول التى واجهتها فى أربعة

المحيطات .. وقد انتصبت صواريها الثلاث التى صنعت فى اليابان ، كأنها فقرات ظهر ثلاثة ملوك من (كولونا) .. أما ظهرها فمجعد متآكل كأنه الحجر الذى يقصده الحجاج فى كاتدرائية (كانتربرى) حيث لقى (بيكت Beckett) حتفه .. لقد أضافوا إليها بعض لمسات عصرية جعلتها غريبة .. كانت مزخرفة بالعاج كأى إمبراطور إثيوبى بربرى .. وكأنها سفينة أكلة لحم البشر تشق طريقها وسط عظام أعدائها ..

سفينة نبيلة لكن فيها لمسة واضحة من الشجن ، وكل الأشياء النبيلة تعطى هذا الإحساس ..

اتجهت للمقدمة بحثًا عن المسئول هنا ، لأطلب منه العمل تحت إمرته .. وجدت رجلاً تبدو عليه أمارات القيادة يقف هناك ، وقد بدا جسده العضلى الأسمر برغم سنه المتقدمة كجسد أكثر البحارة ، بالإضافة إلى تلك التجاعيد حول العينين ، وهى ما يتكون بالتدريج بعد أعوام وأعوام من مواجهة الريح ، مما يجعل العضلات حول العينين تتقلص بشكل دائم ، وكان من الواضح أنه من جماعة (الكويكرز Quakers) الدينية كأغلب سكان هذه الجزيرة .. لكن الكويكرز هنا يختلفون فى أنهم مولعون بالقتال(*) .

(*) جماعة دينية من أتباع (جورج فوكس) اشتهرت بحبها للسلام إلى حد مبالغ فيه ، وهذا مكمن الغرابة فى أن يعمل بعض أفرادها فى مهنة دموية كصيد الحيتان هنا .. اسم الجماعة معناه (المهتزون) وسبب هذا الاسم الغريب هو اهتزازهم الدائم أثناء الصلاة ..

سألته :

ـ « هل هذا قبطان (بيكود) ؟ »

سألنى :

ـ « لو افترضنا أن هذا قبطان (بيكود) ، فماذا تريد منه ؟ »

ـ « كنت أفكر فى الإبحار .. »

ـ « كنت ؟ كنت ؟ أنت لست من أهل (نانتوكت) ، فهل سبق لك السفر بقارب بخارى ؟ »

ـ « لا يا سيد .. ولا أعرف شيئًا عن صيد الحيتان ، لكنى سأتعلم سريعًا .. لقد كنت بحارًا لفترة طويلة على السفن التجارية و .. »

ـ « اللعنة على السفن التجارية ! سوف أنزع هذه القدم من على الدفة لو أنك تكلمت عن السفن التجارية ثانية ! لماذا تفكر إذن فى صيد الحيتان ؟ ألا ترى هذا مريبًا ؟ هل أنت متأكد من أنك لم تسط على سفينتك السابقة أو عملت فى القرصنة ؟ ألا تفكر فى ذبح ضباط سفينتك القادمة ؟ »

نفيت هذه الاتهامات عنى ، لكنى كنت أعرف أنه برغم المزاح الواضح فى كلامه ، يحمل شكًا أصيلاً فى الأغراب ، قال لى :

ـ « تريد معرفة ما هو صيد الحيتان ؟ هل رأيت القبطان (أهاب) ؟ »

ـ « ومن هو ؟ »

ـ « ظننت هذا .. حسن .. هو قبطان هذه السفينة .. »

ـ « كنت أحسبنى أتكلم مع القبطان .. »

ـ « لا .. أنت تتكلم مع القبطان (بيليج) .. إن مهمتى أنا والقبطان (بيلداد) أن نتأكد من سلامة هذه السفينة للرحلة ونزودها بالمؤن والرجال .. نحن جزئيًا مالكان للسفينة وجزئيًا موظفان .. لكن من الخير لك أن تعرف ما هو أكثر قبل أن تربط حياتك بصيد الحيتان .. لو رأيت القبطان (أهاب) لعرفت أنه برجل واحدة .. لقد فقدها أيها الشاب .. التهمت .. تهشمت .. أنت فتى ناعم الرئتين .. فهل أبحرت من قبل ؟ »

« سبق أن قلت ياسيدى إننى كنت على السفن التجارية .. »

ـ « قلت لك ألا تذكرها أمامى ! ولكن قل لى .. هل أنت الرجل الذى يمكنه أن يمسك الحربون ويقذفه فى حلق حوت حى ؟ ثم يقفز لينتزعه ؟ أجب بسرعة ! »

ـ « أعتقد هذا يا سيدى .. »

-«أنت تريد أن ترى العالم .. ألا يكفى أن تراه من هنا ؟»

كنت راغبًا بشدة فى صيد الحيتان ؛ لـذا تمسكت بموقفى وأخبرته بهذا ، فقال فى النهايـة إنـه سيأخذنى معـه .. وإن بوسعى توقيع الأوراق الآن ..

كان هـو و(بيلداد) أكبر مساهمين فى هذه السفينة ، بينما يمتلك كثيرون ما تبقى منها .. البعض يملك ما يساوى مسمارًا أو لوح خشب .. إن أكثر سكان الجزيرة يستثمرون أموالهم فى سفن الحيتان كما يستثمر سكان المدينة أموالهم فى الأسهم ..

حين رأيت (بيلداد) تبينت فيه طراز (الكويكر) الذى لا يؤمن بالعنف ولا يحارب من يحتل وطنه ، لكنه فى المقابل يمكن أن يحتل أوطان الآخرين ويذبحهم ، وهـو فى هذا يعتبر الدين شيئًا منفصلاً عن السلوك اليومى .. وكـان البحـارة الذين عملوا معه فى شبابه يقولون إنه كان متدينًا لم يسب بحارته قـط ، لكنه كان قاسى القلب لدرجة أن أكثر بحارته كانوا يدخلون المستشفى لدى الوصول إلى اليابسـة ، وقيـل إنه فى شبابه كان يكفى أن ينظر لك لتشعر بالعصبية وتبحث عن أى شىء تنشغل به .. مطرقة .. سكين ، أى شىء ..

كنت أعرف طبعًا أنه فى مهنة صيد الحيتان لا يوجد شىء اسمه

راتب .. هم يعطونك جزءًا من الغنيمة فيما يسمى (طبقة) .. وهذه الطبقات تتدرج حسب أهمية دورك .. طبعًا كنت عديم الخبرة بالحيتان لكن خبرتى بالبحر تسمح لى بالحصول على واحد على 275 من أرباح الرحلة مهما كانت ، دعك من اللحم البقرى والخبز الذى لن أدفع عنه مليمًا طيلة ثلاث السنوات ، لكنى فوجئت بأن (بيلداد) - المنهمك فى مطالعة كتاب الصلوات - أراد أن يعطينى الطبقة الواحدة على 777 .. هذا الرجل لا يريد إعطائى شيئًا أكثر مما يمكن للديدان أن تتلفه .. وبرغم هذا هو يردد بصوت عال آيات الإنجيل التى تدعو إلى عدم اكتناز الكنوز ..

صاح القبطان (بيليج) فى غيظ :

- « لا يا (بيلداد) .. أنا سأعطى هذا الفتى الطبقة الواحدة على 300 .. »

- «تذكر الآخرين الذين يستثمرون مالهم فى هذه السفينة .. الأرامل واليتامى الذين تنزع منهم خبزهم بطيبة قلبك .. »

- « يا للجحيم ! لو أننى اتبعت نصائحك لثقل ضميرى إلى الحد الذى يغرق أكبر السفن وأقواها ! »

- « لا أعرف .. لكنى أحسب أن ضميرك مثقوب وسوف يغرق فى النهاية .. »

احتدم الجدل بين الرجلين ، فخرجت وأنا أسائل نفسى عما إذا كان من الحكمة أن أتراجع .. فبدء رحلة تحت هذه الإدارة المتوترة المضطربة أمر مقلق .. فى النهاية أخبرنى (بيليج) أننى سأنال واحدًا على ثلاثمائة .. هنا عرضت عليه أن أجلب صاحبى ، فطلب منى أن أحضره غدًا ليراه ..

تركتهما وأنا أفكر فى أن هذا كان صباحًا مفعمًا بالعمل الطيب .. ثم تذكرت أننى لم أر القبطان الذى سأبحر معه قط .. عرفت أن الرجل لا يفارق قمرته .. كأنه مريض وإن لم يكن كذلك .. إنه رجل غريب الأطوار غير متدين .. لا يتكلم كثيرًا .. لكن حين يتكلم يصغى الجميع له .. إنه ليس كـ (بيليج) ولا (بيلداد) .. إنه (أهاب) الذى كان ملكًا فى التوراة .. كفر وشربت الكلاب من دمه .. لا تخبر أحدًا بهذا فالذنب ليس ذنب الرجل لكنه ذنب أمه التى اختارت له هذا الاسم .. إنه رجل طيب .. ليس طيبًا متدينًا مثل (بيلداد) لكنه طيب يطلق السباب واللعنات .. لقد جن نوعًا لكن هذا بسبب الآلام المبرحة فى ساقه المبتورة .. منذ بترها ذلك الحوت ..

قال (بيجيل) وهو يشرح لى القصة :

ـ «من الخير لك أن تبحر مع قبطان جيد عكر المزاج ، من

أن تبحر مع قبطان سيئ ودود .. والآن وداعًا ولا تسىء فهم القبطان (أهاب) لأن اسمه كريه .. تذكر أنه متزوج من امرأة طيبة .. تذكر أن له طفلاً .. »

تركته وأنا أحمل مشاعر مختلطة نحو القبطان (أهاب) ، لكن العاطفة الغالبة على كانت التهيب .. الرهبة ..

* * *

الفصل السادس

الصيام[*] :

حين عدت إلى (كويكونج) كان غارقًا فى الصيام مع صنمه .. وقد قررت أن أحترم صيامه هذا .. ورأيى أن علينا معشر المسيحيين أن نقبل عادات الفانين الآخرين ولا نتعالى عليها .. هذا هو (كويكونج) يمارس أغرب أنواع الطقوس مع إلهه (يوجو) هذا .. إنه راض يعتقد أنه يعرف كل ما يجب أن يعرفه .. دعه يسترح فلن تجدى مجادلاتنا معه .. وليرحمنا الله جميعًا .

اتجهت إلى حجرته وناديته عدة مرات فلم يرد حتى بدأت أقلق عليه .. اختلست نظرة من ثقب الباب ، فلم أر إلا نهاية الفراش وجزءًا من الجدار .. وإن اندهشت لأننى رأيت جزءًا من الحربون الذى رفضت صاحبة النُزُل أن يأخذه لحجرته .. والأغرب أن هذا دليل على أنه فى الحجرة .

نزلت لأقابل خادمة الغرف ، فأخبرتها بشكوكى ، فقالت :

(*) فى الحقيقة يستعمل الكاتب لفظ (رمضان) للدلالة على الصيام الوثنى الذى يمارسه (كويكونج) .. وهذا ليس عن سوء نية على الأرجح ، بل يدل على جهل الكاتب بالديانات الأخرى ..

ـ «كنت أخشى شيئًا كهذا .. لقد قرعت بابه لأنظف الحجرة فلم يرد ، وكان الباب موصدًا .. لا .. لا .. قتل ! نزف مخ ، مدام ! الحجرة !! »

وركضت تنادى صاحبة النُزل .. جاءت هذه الأخيرة حاملة مرطبانًا من المستردة وزجاجة خل ، واندهشت لما رأتنى أفتش عن طريقة لتحطيم الباب .. فشرحت لها كل شىء بسرعة ..

صاحت :

ـ «والحربون اختفى ! رباه ! الشاب التعس سينتحر ! أنا متأكدة .. هذا حدث من قبل ! هل له أخت ؟ هل تعرف ما جرى له ؟ رباه ! انتحر ومعنى هذا خراب بيتى .. لماذا لا تذهبين للخطاط وتطلبين منه أن يكتب لى لافتة تقول : ممنوع الانتحار هنا من فضلكم ؟ وليكتب بالمرة أيضًا : ممنوع التدخين فى الردهة .. ماذا تفعل أيها الشاب ؟»

وأمسكت بى قبل أن أهشم الباب .. قال إنها لن تسمح بتهشيم أبواب دارها .. فلنحضر صانع الأقفال .. لكنى لم أبال بها وضربت الباب بأعنف ما استطعت ..

انفتح الباب فجأة فرأينا (كويكونج) جالسًا فى سلام فى منتصف الحجرة .. كان فى وضع القرفصاء والصنم (يوجو) فوق رأسه .. لم يتحرك أنملة بل ظل جالسًا بلا علامة على الحياة .

قالت صاحبة النزل :

ـ « لا أحسبه جلس فى هذا الوضع طيلة اليوم ؟ »

لكن لم يعرف أحد الإجابة .. وبدا لى وضعه مؤلمًا خاصة أن كل الدلائل تقول إنه على هذا الوضع منذ تسع ساعات .. إلا أنه لم يتحرك ولم يبال بكل محاولاتى للفت انتباهه .. من الجلى أن هذا جزء من صيامه .. على كل حال تمنيت أن ينتهى هذا الوضع سريعًا .. لحسن الحظ أن هذه المناسبة لا تحدث إلا مرة كل عام ..

ذهبت للعشاء ثم عدت متوقعًا أن أجد الصيام انتهى ، لكن الرجل لم يتحرك .. هكذا لم أجد مفرًا من أن أخلد للنوم ، لكنى لم أنس أن أضع على كتفيه سترتى المصنوعة من جلد الدببة ، لأن الليلة ستكون باردة .

جاء الصباح فدخلت حجرته ، لأجد أنه ما زال فى هذا الوضع .. لكن ما أن دخل الضوء الحجرة حتى تمطى وراح يحرك مفاصله المتخشبة .. وأعلن أن صيامه انتهى .

كما قلت أنا لا أنكر على أى إنسان أن يعتنق أى دين ما دام لا يقتل الآخرين الذين لا يؤمنون بدينه .. لكن حين يدخل الأمر خانة اللامعقول ويجعل من هذه الأرض تعذيبًا لنا ، فإننى أتنحى بهذا الشخص جانبًا وأناقشه .

رحت أحدثه عن نشأة الأديان وعن الأديان المعاصرة السماوية .. وقلت له إن قضاء الليل فى هذا الوضع المؤلم لا يفيد ، بل يتناقض مع العقل وقواعد الصحة العامة .

راح يصغى لى بلامبالاة كأنما هو مندهش من ضلال هذا الشاب حديث السن .. ثم أعلن أن موعد الإفطار قد حان .. هكذا نزلنا إلى قاعة الطعام والتهم الكثير جدًا من الطعام ، حتى إن صاحبة الخان لم تستفد قط من صيامه ..

ثم إننا انطلقنا إلى السفينة (بيكود) ..

* * *

عندما رأى الرجلان (كويكونج) لم يكونا يتوقعان أن زميلي آكل لحوم البشر .. وقد أصرا على التأكد من أن معه أوراقًا تثبت أنه تم تعميده .. ورجح (بيلداد) أنه لم يعمد قط وإلا لأزال الماء بعض اللون الأزرق الذى يلطخ بشرته قضيت بعض الوقت فى إقناعهما بأن (كويكونج) متدين وقد تحرر من تراث أكلة لحوم البشر .

هنا بدأ (بيليج) يقتنع ويسأل (كويكونج) عما إذا كان قد وقف فى مقدمة قارب صيد حيتان من قبل ..

لم يرد (كويكونج) وإنما وثب إلى قارب الصيد المعلق إلى جانب السفينة ، ثم ثنى ركبته وصوب الحربون ، وصرخ :

- «قبطان ! هل ترى بقعة قطران هذه على ماء ؟ اعتبرها عين حوت .. حسن .. إذن ! »

ثم قذف الحربون ، فطار هذا ليضرب بقعة القطران بدقة .

- « هنا قبطان .. حوت كبير مات ! »

هنا صاح (بيليج) يطلب الأوراق .. لابد أن يكون رامى الحربون هذا معهم على السفينة .

- «سنعطيك الطبقة (واحد على 19) .. هذا يفوق ماتقاضاه أى رامى حربون من قبل .. لكن هل يعرف كيف يكتب اسمه ؟»

مد (كويكونج) ذراعه ليكشف عن وشم هناك يحمله من وطنه ، وحاكاه على الورق بالقلم ..

قال (بيليج) :

- «لن نحاول أن ننزع روح سمكة القرش الشرسة من رامى الحربون هذا .. فرامى الحربون لا يساوى قشة لو فقد روح القرش فيه .. كان لدينا فتى هذبناه أكثر من اللازم ، فصار يخاف على روحه المعذبة ، وبدأ يخشى الاقتراب من الحيتان .. »

* * *

الفصل السابع

فليتحرك الجميع :

مر يومان وكانت هناك حركة نشطة على ظهر (بيكود) .. لقد تم تركيب أشرعة جديدة وبكرات من حبال الأشرعة .. وتم إخطار الشركات الموردة أن عليها نقل بضائعها لأنه لا يعرف أحد متى تتحرك السفينة بالضبط .. الكثير من الأشياء يجب إنجازها والتفكير فيها قبل التحرك .. ثلاثة أعوام بعيدًا عن البقالين والجزارين والمصارف والأطباء .. وهذا صحيح بالنسبة للسفن التجارية ، لكنه أكثر صحة بالنسبة لسفن صيد الحيتان حيث يجب أن يوجد الكثير من كل شىء .. كل شىء له قطع غيار ما عدا القبطان .. كل شىء معرض لأن يتلف أو يدمر .. لا شىء يمكن نسيانه حتى المخلل وحتى ريش الكتابة على مكتب القبطان .

طيلة هذه الفترة لم أر القبطان (أهاب) قط ، وحين أفكر فى الأمر أجد من الغريب أن أتورط فى رحلة بهذا الطول دون أن أرى الرجل الذى سيكون الدكتاتور الأوحد طيلة الرحلة .

وعرفنا أن السفينة ستتحرك فى صباح اليوم التالى .

* * *

لدى وصولنا فجرًا لم نر أحدًا ، وبدت لنا السفينة خالية تمامًا .. خيل لى أننى رأيت بعض الرجال يصعدون إليها ..

فى النهاية صعدنا إلى ظهر السفينة .. فى البداية لم أر هؤلاء الرجال الذين حسبت أننى رأيتهم أولاً .. ثم جاء أفراد الطاقم مع شروق الشمس وبدأ نقل اللمسات الأخيرة ، لكن ظل القبطان (أهاب) مختفيًا .

وعند الغروب بدأت استعدادات مغادرة المرفأ .. وجاء (بيليج) و(بيلداد) يشرفان على كل شىء ، كأنهما سيرافقاننا طيلة الرحلة .. وكالعادة لم يظهر القبطان (أهاب) وهو أمر ليس غريبًا لأن هذه أمور يمكن أن تتم من دونه ، وحتى فى الرحلات التجارية قد لا يظهر القبطان إلا بعد وقت طويل من رفع المرساة ..

على كل حال كان (بيليج) يقوم بالصراخ والسباب ويفعل كل شىء بحيث لم يعد مبرر لأوامر من شخص آخر :

ـ « هلموا يا أبناء العزاب ! أرفعوا المرساة ! الدم والرعد !! ثبوا !! »

فيقول له (بيلداد) :

ـ « لا داعى للبذاءات .. هذا لن يجعل الأمور أسرع .. »

تصلبت جوار (كويكونج) وأنا أرتجف رعبًا من فكرة أن أمضى الرحلة مع ربان شيطان كهذا ، هنا شعرت بشىء قوى يضرب مؤخرتى فنظرت للوراء لأجد (بيليج) يستعيد قدمه .. لقد كانت هذه ركلتى الأولى ..

وصاح بصوت كالزئير :

ـ « هل هكذا يجذبون المرساة فى البحرية التجارية ؟ هلموا ! حطموا عمودكم الفقرى ! اجذبوا يا حمقى ! اجذبوا !! أنت يا ذا السروال الأخضر .. وأنت يا ذا الشارب ! »

وراح يمشى هنا وهناك موزعًا ركلاته بسخاء .. فخطر لى أنه قد أفرط فى الشراب اليوم ..

وانطلقت السفينة فى عرض البحر فى برد الكريسماس .. والتمعت أضواء النجوم على الأسنان العاجية التى زينت السفينة .. وكان قارب الإرشاد يبحر إلى جوارنا ..

أخيرًا تأهب الرجلان للرحيل ، فألقى علينا القبطان (بيلداد) موعظة .. ينصحنا فيها بعدم استهلاك الحربون وأن نتأكد من أن مخزون الجبن لا يتسرب له الماء ، وأن نتجنب الزنا حين نرسو فى الجزر .. ثم نزل الرجلان إلى القارب .. وسرعان ما ابتعد هذا عن السفينة ..

صرخ طائر نورس من فوقنا ، فأطلقنا ثلاث صيحات تهليل ثم انطلقنا إلى مياه الأطلنطى ..

* * *

الآن وقد صرت و(كويكونج) على متن السفينة ، أجد لزامًا على أن أصحح لك بعض المفاهيم بصدد مهنة صيد الحيتان .. من العسير فى المجتمع أن تنظر إلى صائد الحيتان أو قاذف الحربون نظرتك إلى (المهن الحرة) ، ويكون لزامًا عليه فى أى تعامل رسمى أن يضيف لأوراقه الحروف S. W. F. وهى الحروف الأولى من عبارة (صيد حيتان العنبر) ، وتبدو مهينة إلى حد ما .. ربما تعود هذه النظرة إلى كون العالم يعتبرنا دمويين .. نعم نحن جزارون دمويون لكن لسنا أكثر دموية من أى قائد عسكرى يمنحه العالم نوط الشجاعة .. وهذا القائد نفسه سيرتجف هلعًا لو رأى زعنفة ذيل حوت العنبر تعلو فوق الأمواج .. إذ ما وزن الرعب والهول البشرى أمام رعب وهول الطبيعة ؟

لكن العالم برغم هذا يكرمنا كما لم ير إنسان من قبل ، لأن كل مصباح وكل شمعة فى العالم ، إنما تشتعل فى الحقيقة تكريمًا لنا ! ألسنا نحن من منحها الزيت الذى

تتوهج به ؟ لقد اكتشفت سفن صيد الحيتان أماكن وخلجانًا لم يرها أحد من قبل .. ولئن كانت السفن التجارية تجوب الآن أرجاء المحيط ، فعليهم أن يتذكروا أن سفن صيد الحيتان هى التى استكشفت لهم كل هذا .. سفن صيد الحيتان هى التى تعاملت مع المتوحشين وخاضت معارك لا يجرؤ مستكشفوك العظام من طراز (كوك Cooke) وسواهم على أن يحلموا بها .. والمغامرات التى يخصص لها بحارة (فانكوفر) ستة فصول كاملة من مذكراتهم ، لا يجدها بحارة سفن الحيتان جديرة بالذكر أصلاً باعتبارها من روتين حياتهم .

قارة أستراليا جعلتها سفن الحيتان مستعمرة حقيقية ، وقد نجا أول المهاجرين لها من الموت جوعًا بفضل البسكويت الذى كانت تتركه لهم سفن الصيد .. وفى القوانين البريطانية يطلق على الحوت لقب (سمكة ملكية) .. إن سفينة الحيتان لأهم بالنسبة لى من أية جامعة بريطانية عتيقة ، وإن ذلك الرجل الذى اصطاد ثلاثمائة حوت لأعظم فى نظرى من كل القادة الغابرين الذين حاصروا المدن واقتحموها .

* * *

الفصل الثامن

أهاب :

الآن أفلتنا من قبضة البرد القطبى ، لنتجه نحو الجنوب .. ومع كل درجة نتحركها كنا نتحرر أكثر فأكثر من أنياب البرد المخيفة .

كان رئيس ضباط (بيكود) هو (ستارباك) .. وهو من سكان (نانتيكوت) الأصليين .. كان رجلاً مخلصًا يتحمل الطقس الحار جيدًا برغم أنه ولد فى ساحل ثلجى .. جلده قاس صلب ، وقد عاش ثلاثين صيفًا جففت كل ما هو زائد فى بنيانه ، فهو نحيل ضامر الجسد كأنما هو رمز لما عاشه من هموم وقلق ، وبرغم هذا فإنه يتمتع بصحة طيبة ، فكان أقرب إلى مومياء فرعونية أعدت للحياة بعد أجيال طويلة ، وفى عينيه كنت ترى الأهوال التى واجهها طيلة حياته ، فهو رجل غصت حياته بالحركة ، ولم تكن مجرد فصل من الكلمات ، ولم يكن يستطيع نسيان زوجته الشابة وابنه ، لذا كان يكرر دومًا : لن أسمح لرجل لا يخاف الحيتان بأن يركب معى ..

وكان بهذا يعنى أن الخطر الحقيقى على الرجال هو سوء تقدير الخطر ، والجرأة التى تنجم عن جهل .. ولعله كان يعتبر الشجاعة نوعًا مهمًا من المؤن على ظهر السفينة ، يجب الحفاظ على مخزونها وعدم تبديدها هباء .

الضابط الثانى كان هو (ستاب) .. وكان من سكان (كيب كود) الأصليين .. مرح لا يبالى بالأخطار على الإطلاق كأنما كل الأخطار مجرد حفل عشاء والبحارة مدعوون له .. إن الخبرة حولت أنياب الموت بالنسبة له إلى مقعد مريح .. وكنت تشعر أن غليونه جزء من ملامح وجهه مثل أنفه .. فكان يضع مجموعة من الغلايين المحشوة فى صف ، ثم يدخنها بالترتيب ويحشوها استعدادًا للمرة القادمة ، والحقيقة أنه من المؤمنين بأن الهواء ملوث وأن دخان الطباق يطهره .

الضابط الثالث كان رجلاً غليظًا قصير القامة يدعى (فلاسك) .. لا يملك أى انبهار بضخامة تلك الكائنات .. بالنسبة له كانت الحيتان لا تختلف عن الفئران الكبيرة .. فقط أنت تحتاج إلى بعض الوقت والتحايل إلى أن تظفر بها وتسلقها فى الماء .. وكان يعتبر ثلاثة أعوام فى البحر مجرد نكتة يتسلى بها فيما بعد .. إن أصابع الإنسان تنقسم إلى أصابع مستقيمة وأخرى قادرة على الانثناء ، وكان (فلاسك) أقرب إلى إصبع مثنى يجعل القبضة محكمة ويتحمل أكثر .

لعدة أيام بعد ترك (نانتوكت) لم نر شيئًا من القبطان (أهاب) .. وكان الضباط يخرجون من القمرة من حين لآخر ويتناوبون إصدار الأوامر ، لكنك كنت تشعر أنهم أمرو السفينة الوحيدون .

وكلما صعدت إلى السطح كنت أبحث عن أى وجه جديد .. لأن عجزى عن رؤية القبطان وانعزاله قد تحولا وسواسًا بالنسبة لى .

وذات يوم كنت أتولى المراقبة ، حين نظرت إلى أسفل فانتابتنى رعدة .. لقد كان (أهاب) يقف هناك ..

لم تكن ثمة علامة على عيب جسدى فيه .. ولا علامة على شفائه من عيب ..

بدت قامته الفارعة كأنما هى منحوتة من البرونز من قالب لا يمكن تغييره .. ومن منبت شعره إلى جانب وجهه حتى أعلى ثيابه يمكنك أن ترى علامة بيضاء شاحبة تذكرك بلسان البرق الذى يضرب الشجرة من قمتها مرورًا بجذعها حتى الجذور .. لا تعرف إن كانت هذه بقايا جرح أم هو ولد بها .. لقد أثر فىّ منظره العام المكفهر ، بالإضافة إلى تلك العلامة التى خطت عليه ، حتى إننى لم أفطن إلا بعد وقت طويل إلى أن أكثر هذا الأثر المتجهم يعود للقدم البيضاء البدائية التى يمشى عليها .

لقد خطر لى أن هذه القدم العاجية تم صنعها من عظام فك حوت العنبر .. وأثار دهشتى كيف يقف عند أركان السفينة ، حيث كانت هناك فتحات عمقها نحو نصف بوصة ، فكان يغرس قدمه العظمية فى كل فتحة منها ويقف ، ثم يرقب البحر .. ثمة نوع من التصميم الذى لا يقهر والشجاعة التى لا توصف فى تلك النظرة الثابتة .. ولم يكن يتكلم لكن ضباطه كانوا يتصرفون بعدم راحة يدل على شعورهم الدائم ـ والأليم ـ بنظرته المتسلطة .

منذ تلك اللحظة صرنا نراه كثيرًا ، ولم يعد ملتزمًا بعزلته تلك .. لكن برغم هذا كان وجوده حتى هذه اللحظة زائدًا على الحاجة ربما بسبب براعة الضباط الفائقة .

مرت الأيام وصارت الثلوج وجبال الجليد من خلفنا ، ومضت (بيكود) فى ذلك الجو الربيعى الدائم المميز للمناطق الاستوائية .. إن السن المتقدمة تحظى بنوم أقل كأنما طول العمر يقلل ارتباطك بالعدم الشبيه بالموت .. ولهذا تصحو اللحى البيضاء لتزور سطح السفينة المدثر بالظلمات ، وهذا كان حال (أهاب) .. لقد صار يظهر كثيرًا حتى إن زياراته العابرة كانت من السطح لقمرته .. وعندها كنت تشعر نوعًا من الإنسانية فيه .. لم يكن يتخذ وقفته

المعهودة فوق السطح ، لأنه لا يحب أن يدق بقدمه العاجية فوق رءوس النيام .. هذه الدقات لو سمعوها لأفعمت أحلامهم بالكوابيس ، ولحلموا بأنهم يقضون بين أنياب أسماك القرش .

ويخرج له الضابط (ستاب) فيقول له (أهاب) :

ـ «ألا عد لقبرك الليلى .. حيث يغفو أمثالك فى أكفانهم .. انزل أيها الكلب !»

هنا يتصلب (ستاب) للحظة وينظر للرجل ، ثم يقول فى انفعال :

ـ «لم أعتد أن يكلمنى أحد بهذه الطريقة يا سيدى .. ولا يمكننى القول إننى أحبها ..»

فيصيح (أهاب) بين أسنانه :

ـ «توقف !!»

ثم يبتعد كأنما يتجنب إغراءً قويًا ، هنا يقول (ستاب) :

ـ «كلا يا سيدى .. لم أنته بعد .. لن أقبل بوداعة أن يقال إننى كلب ..»

ـ «إذن لتدعك حمارًا عشر مرات .. وبغلاً .. واغرب عن وجهى قبل أن أخلص العالم منك !»

يقولها وهو يندفع نحو (ستاب) وقد بدا الهول على سحنته حتى أن (ستاب) يتراجع لا شعوريًا .. يهبط من الكوة وهو يردد :

ـ «لم يكلمنى أحد بهذه الطريقة من قبل إلا وضربته .. ماذا تفعل يا (ستاب) ؟ تضربه ؟ أم تركع أمامه ؟ لا أعرف .. إنه غريب الأطوار .. أغرب عجوز عرفته فى حياتى .. إنه لا ينام أبدًا .. يقضى الليل على السطح .. وماذا يقول خادم الغرف عنه ؟ يقول إنه يجد أغطية فراشه مكومة وقد أوشك على أن يربطها فى عقد .. والوسادة ساخنة كأنما وضع عليها قالب قرميد ساخن .. إنه رجل عجوز ملتهب ! أتساءل عما يدور فى ذهنه المريض وأى شىء يثقل ضميره .. هذا عجيب .. لكن كل شىء فى الحياة عجيب لو أمعنت التفكير فيه .. (لا تفكر) .. تلك هى الوصية الحادية عشرة بالنسبة لى .. (نم متى استطعت) .. هذه هى الوصية الثانية عشرة .. لقد لقبنى بالكلب وعشر مرات بالجحش .. لربما كان ليركلنى لو أراد .. من يدرى ؟ لربما ركلنى ولم ألحظ هذا .. لقد انشغلت بمنظر حاجبيه فلم ألحظ .. سأعود لتدخين الغليون وفى الصباح أفكر فى الأمر ..»

* * *

الفصل التاسع

علم الحيتان :

يقول الكابتن (سكورسبى) عام 1820 : ليس هناك فرعًا من علم الحيوان أكثر تخبطًا من علم الحيتان Cetology . وكذا يقول (كوفييه Cuvier) العظيم و (هنتر) .. وبرغم هذا هناك الكثير من الكتب عن الحيتان .. تكلمت عنها التوراة وكتب عنها (أرسطو Aristotle) و (بلينى) وسير (توماس براون) و (لينيس) و (بريسون) و (بيل) .. وسواهم ..

لم يكن واحد من هؤلاء صائد حيتان أو رامى حربون ، باستثناء (سكورسبى) إلا أنه كرس جهده للكتابة عن حوت (جرينلاند) الذى لايعتبر من الحيتان الكبيرة أو المهمة ، بينما لا يعرف أحد إلا القليل عن حوت العنبر Sperm whale .. ولم يقسم أحد الحيتان تقسيمًا سهلاً ، لهذا أحاول هنا أن أعطى فكرة سريعة عن الموضوع ، ولا أزعم الكمال لأن كل عمل يزعمه إنما يعترف فى الوقت ذاته بامتلائه بالأخطاء .

إن الحيتان تختلف عن الأسماك كما قال (لينيوس) ، لأنها ترضع أطفالها ودمها دافئ ، ولأن ذيلها أفقى وليس رأسيًا ولأنها تملك رئة ، بينما الأسماك لا رئة لها .

أقسم الحيتان حسب الحجم إلى :

1 ـ حوت الفوليو : مثال حوت العنبر ـ حوت جرينلاند ـ الحوت ذو الزعنفة الظهرية ـ الحوت الأحدب ـ الحوت ذو البطن الكبريتى .

● حوت العنبر هو أضخم كائن على وجه الأرض بلا جدال .. الأكثر رهبة والأهم من الناحية التجارية .. إن مادة دهن الحوت Spermaceti تؤخذ من رأسه وتستعمل فى المراهم والإضاءة .

● حوت (جرينلاند) يدعى أحيانًا بحوت البالين أو الحوت الصحيح Right whale .. ومنه تستخرج مادة البالين ، كما يستخرج منه ما يعرف بزيت الحوت .

● الحوت ذو الزعنفة الظهرية هو المسئول عن تلك النافورة التى يراها المسافرون عبر الأطلنطى .. حين ينبثق الزفير من ظهره .. يسهل تعرفه من زعنفته الظهرية وهو كائن خجول يكره الحيتان الأخرى .. ويصنف مع حوت (جرينلاند) ضمن قائمة هى (حيتان البالين) أو (الحيتان العظمية) .

● الحوت الأحدب : لا أحد يعرف عنه الكثير ما عدا حدبته التى تبرز فوق مستوى الماء .. دعه يمض فأنا لا أعرف عنه الكثير ولا أى واحد سواى .

2 ـ حوت الأوكتافو : مثال الجرامبوس Grampus .. والحوت القاتل ..

3 ـ حوت ديودسيمو : مثال البوربواز Porpoise . يبدو غريبًا لغير الدارسين أن يصدقوا أن أسماكًا لا يتجاوز طولها أربعة أقدام هى حيتان ، لكنها الحقيقة .

هذا هو الهيكل العام ، الذى لن أستكمله .. فليحفظنى الله من استكمال أى عمل أقوم به ! أتركه لسواى كى يملئوا فراغاته ويصنفوا كل حوت جديد يجدونه ضمن هذه القائمة السهلة .. مثلما بنى المهندسون معبد (كولونا) ثم تركوا الأعمدة شامخة تنتظر من يضع القرميد بينها .

★ ★ ★

رامى الحربون هو رتبة لا توجد بالطبع على أية سفينة أخرى .. وفى الماضى كانت سلطة القبطان مقصورة على الملاحة والعناية بالسفينة ، بينما كان كبير قاذفى الحربون هو المسئول عن كل مهام صيد الحيتان ، وكان يدعى Specksynder وهى لفظة ألمانية معناها الحرفى (قاطع الدهن) . وقد تدنى مستوى قاذف الحربون مؤخرًا لكن نجاح رحلة صيد الحيتان يعتمد عليه بالكامل .

★ ★ ★

الفصل العاشر

سطح السفينة :

كان (أهاب) دبًا أشهب فى طباعه .. متى جاء الشتاء تكور فى جذع شجرة وراح يمتص مخالبه .. كذا كان (أهاب) يغلق قمرته على نفسه ويمتص مخالب كآبته الخاصة وهمومه .

لم يكن (أهاب) كثير التدخل لكن سلطته لم تكن تتزحزح ، فكأنه (بلتشصار) ملك (بابل) أو كأنه ـ وهو جالس إلى منضدة الطعام ـ أسد بحر على شاطئ المرجان الأبيض ، يحيط به أشباله .. كان الضباط يبدون كأطفال من حول (أهاب) لكنه لم يكن متغطرسًا .. يصمت الجميع وتتجه أنظارهم إليه وهو يمسك سكينه ليقطع الطبق الرئيسى على العشاء .. ثم يشير إلى (ستارباك) كى يناوله طبقه ، فيتلقى هذا الأخير اللحم كمن يتلقى صدقة ، ويلوكه فى حذر متحاشيًا أن يحدث صوتًا إذ تحتك سكينه بالطبق .

وكان (فلاسك) المسكين ينال ـ بحكم كونه أصغر أفراد هذه الأسرة ـ أقل القليل من عظام اللحم ، (ودبابيس) الدجاج ..

وأعتقد أنه كان بوسعه أن يأخذ لنفسه ما يريد وما كان (أهاب) ليعترض ، لكن (فلاسك) لم يجسر على هذا .. المشكلة الأخرى بالنسبة له هى أنه آخر من ينادى إلى المائدة وأول من يتركها .. هكذا كان عليه أن يتناول عشاءه فى أضيق وقت ممكن .. بل إنه كان مرغمًا إذا ما اكتفى (ستاب) أن ينهض وراءه ! تصور هذا ! منذ ترقى (فلاسك) لرتبة ضابط لم يعد يعرف إلا الجوع .. وكان يقول : إن السلام والشبع قد هجرا معدتى للأبد !

وما زال يتمنى أن يقف عند مقدمة السفينة ويجمش قطعًا كبيرة من لحم البقر ! هذه هى سخرية الحياة وعبثية المجد ! حتى إن أى بحار حاقد لسبب ما على (فلاسك) يكفيه أن يقصد القمرة ليختلس نظرة عبر النافذة إلى (فلاسك) الجالس خائفًا فى حضرة (أهاب) ..

بعد انتهاء طعام الضباط يغادرون القمرة بترتيب معكوس ، ثم يعاد المفرش بسرعة إلى المائدة ويدخل رماة الحربون الثلاثة .. هنا يظهر التناقض الرهيب بين جو الرعب الثقيل الذى خيم على مائدة الضباط ، حتى إنهم يخافون الصوت الذى تحدثه فكوكهم حين تغلق ، مع جو المرح والحرية الذى يسود مائدة رماة الحربون .. يأكلون

بشهية كأنهم سفن الهند التى لا تكف عن تحميل التوابل .. لا يكفون عن ضرب الخادم وغرس الشوكة فى ظهره كأنها حربون ، والفتى لا يكف عن الرجفة من تعامله مع (أهاب) أولاً ثم مع هؤلاء المتوحشين الثلاثة ـ و(كويكونج) من بينهم ـ فإذا اطمأن إلى أن مائدتهم عامرة توارى مختبئًا ينتظر رحيلهم .. كأن أحد الثلاثة من أصل هندى والآخر زنجيًا من إفريقيا .. وهذا الأخير عملاق إلى حد أنه يذكرك بفيل تم شحنه من إفريقيا .. وكنت تتساءل عن الدور الذى يلعبه الطعام ـ مهما زادت كميته ـ مع هذا الجسد الهائل ، لكن يبدو أن الفتى كان ينام جيدًا ، وكان منخراه الواسعان ينهلان الهواء النقى كأنه يتشرب جوهر الكون كله .

أما الأصوات المخيفة التى يحدثها فكا (كويكونج) أثناء المضغ فلم تكن من الأمور التى تجعل الحياة أفضل بالنسبة للفتى البائس ، خاصة وهو يعرف يقينًا أن (كويكونج) كان يأكل أشياء غريبة فى جزيرته .

أخيرًا ولسرور الفتى يرحل هؤلاء المتوحشين الثلاثة .

* * *

ذات صباح بعد الإفطار ، صعد (أهاب) إلى سطح السفينة .. وهى عادة لدى أغلب الربابنة كما يفعل السادة على اليابسة بعد وجبة يجوبون بعدها الحديقة .. سرعان ما سمعنا وقع قدمه العاجية وهو يمشى فوق ألواح خشب السقف التى اندغمت جميعًا من أثر خطواته كأنما علامات جيولوجية على صخور .

فلو نظرت إلى حاجبيه لرأيت آثار أقدام أخرى .. آثار أقدام أفكاره التى لا تهدأ ولا تنام .. يمكن الآن أن ترى بسهولة أن الفكر يمشى معه إذا مشى ويقف معه إذا وقف .

وهمس (ستاب) :

ـ « هل ترى يا (فلاسك) ؟ الكتكوت فى داخله ينقر البيضة وسيخرج حالاً ! »

ظل صامتًا حتى المساء ، ثم غرس قدمه فى الحفرة المعتادة على السطح وطلب من (ستاب) أن يستدعى الجميع ..

ـ « سيدى ! »

صاح (ستاب) فى دهشة لهذا الطلب الغريب ، الذى يندر أن يطلب على السفن إلا لضرورة خارقة للعادة ..

ـ « الجميع ! ولينزل الناضورجية من على السارية ! »

احتشد الجميع بعيون لا تخلو من الرعب ، لأنه بدا شبيهًا بالسماء المنذرة بعاصفة قريبة .. راح يدور فى مساره المعهود محنى الرأس معتمرًا قبعته ، غير مبال بنظرات الدهشة لدى الرجال المجتمعين ..

لم تطل الدهشة لأنه رفع صوته :

ـ « ماذا تفعلون لو رأيتم حوتًا يا رجال ؟ »

صاحت الأصوات :

ـ « نغنى له (أى نتصايح بالخبر) ! »

قال برضا متوحش فى صوته :

ـ « جميل ! وماذا بعد ذلك ؟ »

ـ « نلاحقه .. وشعارنا هو الحوت الميت أو القارب ! »

ابتسم الشيخ فى رضا .. وأصيب الرجال بدهشة من حماستهم للإجابة على أسئلة تبدو بلا جدوى ..

ـ « كلكم سمعنى أتكلم عن حوت أبيض .. انظروا لى .. هل ترون هذه الأوقية الذهبية الأسبانية ؟ »

ولوح بعملة من ذهب فى الشمس ، وقال :

ـ « إنها قطعة بـ 16 دولارًا .. ناولنى مطرقتك يا مستر (ستارباك) .. »

وراح يمسح القطعة فى سترته وهو يتكلم بصوت خفيض غير مسموع ، كأنما صوت الآلات الميكانيكية التى تعمل داخله .. اتجه إلى الصارية الأساسية وصاح :

ـ «من يبلغنى منكم عن ظهور حوت أبيض مجعد الحاجب ملتوى الفم .. من يبلغنى عن حوت أبيض فى ظهره ثلاث فتحات .. من يخبرنى برؤيته ينل هذه الأوقية يا أولادى ! »

وبدأ يثبت القطعة للصارية بمسمار ..

ـ «من ير منكم حوتًا أبيض فليخبرنى .. انظروا بدقة إلى المياه البيضاء .. »

هنا قال قاذف حربون :

ـ «سيدى .. هذا الحوت الأبيض لا بد أن يكون (موبى ديك) ! »

صاح (أهاب) :

ـ « (موبى ديك) ! تعرفون الحوت إذن يا (تاش) ؟ »

سأله أحدهم :

ـ « هل تخرج منه نافورة مياه عملاقة يا سيدى ؟ وهل يحرك ذيله حركة غريبة قبل أن يغطس ؟ »

وسأله (كويكونج) :

ـ «وهل هناك الكثير من حديد فى ظهره يا سيدى ؟ كلها مغـ .. مغـ .. »

قال (أهاب) :

ـ «مغروسة .. نعم يا (كويكونج) .. مغروسة بشكل لولبى كفتاحة الزجاجة .. أكثر من حربون مغروس فى ظهره .. نعم يا (ياجو) .. إن نافورته عملاقة وبيضاء ككومة من صوف (نانتيكوت) بعد جز الأغنام .. إنه (موبى ديك) !! نعم .. (موبى ديك) ! »

هنا سأله (ستارباك) :

ـ «سمعنا عن (موبى ديك) يا سيدى .. لكن هل كان (موبى ديك) هو الذى بتر رجلك ؟ »

صاح (أهاب) :

ـ «ومن أخبرك بهذا ؟ نعم كان (موبى ديك) هو الذى أفقدنى صاريتى .. (موبى ديك) هو الذى جعلنى أقف على هذه الرجل العاجية .. »

ثم صرخ من قلبه كأنما هو وعل اخترق قلبه رمح :

ـ « أجل ! أجل !! هو (موبى ديك) الذى جعل منى بحارًا لا نفع فيه .. متسولاً .. أجل أجل ! سأطارده حول (رأس الرجاء الصالح) وحول (القرن) .. ووسط نيران الهلاك قبل أن أستسلم ، ولهذا أبحرتم يا رجال ! كى تلاحقوا هذا الحوت عبر أرجاء الأرض إلى أن ينفث دمًا أسود .. فماذا تقولون ؟ تبدون لى رابطى الجأش .. »

صاح الرجال :

ـ « أجل .. أجل .. نظر ثاقب ورمح نافذ للحوت الأبيض ! »

ـ « بورك فيكم يا رجال .. ولكن لماذا لا يبدو عليك الرضا يا سيد (ستارباك) ؟ هل تخشى الحيتان ؟ »

قال (ستارباك) :

ـ « أنا مستعد لصيد حيتان العالم ياسيدى .. لكنى خرجت لصيد الحيتان وليس لتنفيذ انتقام قبطانى .. بكم يباع انتقامك يا قبطان ؟ إنه لن يباع بسعر كبير فى أسواق (نانتيكوت) .. الانتقام من وحش أعجم لا يعرف ما يفعله .. هذا ينضوى تحت لواء الجنون يا قبطان .. ربما تحت لواء التجديف فى إرادة الله .. »

قال (أهاب) :

ـ « فلتصمت يا رجل .. أعدك أن تنال طبقة أقل مما خصص لك .. مثلما يضع الممثلون الأقنعة على المسرح ، فإن عليك حين تضربهم أن تضرب القناع لتصل لما وراءه .. والحوت الأبيض هو مجرد قناع لكل ما أكره فى الحياة .. لا تتكلم عن التجديف يا رجل .. فلسوف أضرب الشمس ذاتها لو أهانتنى .. لأنها لو استطاعت إهانتى فأنا أستطيع ضربها .. هذا لعب عادل هنا .. هل ترى الرجال ؟ كلهم فى صف واحد مع (أهاب) بينما تقف أنت وحيدًا وسط الإعصار .. (يتكلم على جنب) شىء قد دخل فى منخرى وملأ صدرى بروح الغضب .. إن (ستارباك) الآن عدوى ولن يفوز على إلا لو قاد تمردًا .. »

غمغم (ستارباك) :

ـ « ليحفظنى الله .. ليحفظنا جميعًا !! »

جاءوا بقنينة الشراب ، فلوح (أهاب) بها فى الهواء وناولها أول البحارة وقال :

ـ « اشرب ومررها !! جرعات طويلة يا رجال ! إنها ساخنة كحافر الشيطان ! تقدموا يا رفاق ! »

وراح يلمس الرماح كأنما يمنحها جزءًا من مغناطيسية ذاته .. ثم طلب من رماة الحربون أن يقربوا أسلحتهم منه ، وراح يصب الشراب لهم فى النهايات المجوفة لكل حربون ..

ـ « إننى أمنح التكريم لرماة الحربون كرام النفس هؤلاء .. لا تجرحونى بهذه النصال .. أميلوها ! أميلوها ! الموت لـ (موبى ديك) ! فليمتنا الله جميعًا إن لم نقتل (موبى ديك) !! نخب موته ! »

وراح الرجال يشربون وتتصاعد صيحات الحماس ..

ثم بإشارة من يد (أهاب) تفرق الجمع ، وعاد هو إلى قمرته ..

* * *

الفصل الحادى عشر

الغروب :

القمرة .. جوار النافذة يجلس (أهاب) وحيدًا ينظر للخارج :

حيثما أبحرت أترك خلفى أرقًا عكرًا ومياهًا شاحبة ووجنات أكثر شحوبًا .. الموجات العظمى على جانبى السفينة تعوق طريقى ، لكن دعها وشأنها .. لأننى أمر عبرها .

هل التاج الذى ألبسه أثقل مما يجب ؟ تاج Lombardy الحديدى .. هو ليس من ذهب ، لكنه مزدان بالحلى التى لا أراها .. إنه يدمى رأسى بحافته الحادة لكنه رأس صلب لا يتأثر بسهولة .. هذا الضوء العذب لا يسقط على .. كل ما هو عذب يعذبنى لأننى لا أطيق الاستمتاع به . منحت فهمًا عاليًا لكنى حرمت من أدنى قدرة على الاستمتاع .

ما كانت مهمة عسيرة .. حسبت أننى سأجد شخصًا عنيدًا .. لكنهم التفوا حولى كالنمل .. لقد أردت .. وما أردت سأفعله ..

يحسبنى البعض مجنونًا .. (ستارباك) يعتقد هذا .. لكنى شيطانى .. أنا الجنون الذى جن جنونه ! النبوءة كانت أننى سأفقد أطرافى ، وهأنذا فقدت قدمى .. نبوءتى أنا هى أننى سأمزق ممزقى ..

أيتها الطبيعة العاتية .. لن أقول لك مثل تلاميذ المدارس : ابحثى عن شخص فى حجمك لتهزميه .. لا .. أنا مناسب لك ، ولسوف يكون عليك أن تركضى وتتوارى .. تعالى وجربى أن تثنينى عن عزمى .. تثنينى ؟ إن الطريق إلى هدفى تحيط به القضبان الحديدية التى سوف تجرى فوقها روحى ..

منتصف الليل عند المقدمة .. يجلس رماة الحربون والبحارة ..

يرتفع الشراع الأمامى كاشفًا عن الحراس فى أوضاع مختلفة بين الرقاد والوقوف ، والكل ينشد فى كورس .

وداعًا أيتها النسوة الأسبانيات .. وداعًا أيتها النسوة الأسبانيات ..

لقد أصدر القبطان أوامره ..

أول بحار :

آه يا شباب .. لا تكونوا عاطفيين .. هذا يؤذى الهضم .. اتبعونى فى الغناء (يغنى وهم معه)

وقف قبطاننا على السطح وفى يده منظار مقرب

يرقب تلك الحيتان العظيمة ..

قفوا فى قواربكم ولسوف نظفر بأحد هذه الحيتان ..

فتماسكوا يا رفاق ولا تخذلنكم قلوبكم ..

حين ينغرس الحربون فى الحوت ..

بحار فرنسى :

هلموا يا شباب ! دعونا نفز برقصة أو اثنتين قبل أن ننزل مرسانا فى ساحل (بلانكت) .. ما رأيكم ؟ (بيب) .. (بيب) الصغير .. تعال سريعًا مع دفك ..

بيب (نائمًا) :

لا أعرف أين هو ..

البحار الفرنسى :

إذن اضرب على بطنك وهزّ أذنيك .. هلموا يا رجال ارقصوا ! الأقدام .. الأقدام !

بحار أيسلندى :

معذرة .. لكنى لا أعرف كيف أرقص على هذه الأرض الجافة .. لقد أعتدت الجليد ..

بحار مالطى :

وأين الفتيات ؟ من سوى الأحمق ذلك الذى يمسك يده اليمنى باليسرى ويقول لها : كيف حالك ؟ أريد زميلات للرقص ! (تكفهر السماء) ..

بحار هندى :

بحق (براهما) ! ستبتل الأشرعة سريعًا .. إن السماء تنذر بعاصفة .. الريح ستعصف بنهر (الجانج) ! أنت ترينا غضبك يا (شيفا) !

بحار من نانتيكوت :

ما هذا ؟ أتراه البرق ؟

بحار أسبانى :

لا .. بل هو (ياجو) الزنجى يكشر عن أنيابه !

ياجو (يثب) :

ابلع لسانك يا ذا الجلد الأبيض والكبد الأبيض !

الأسبانى (يواجهه) :

سأطعنك من كل قلبى ياذا الجسد الضخم والروح الضئيلة !

(تنتهى المشادة سريعًا لأن الرجال ينهمكون فى اتقاء العاصفة القادمة) ..

* * *

الفصل الثانى عشر

موبى ديك :

كنت أنا (إسماعيل) واحدًا من هذا الطاقم ، وصرخت حين صرخوا .. واتحد قسمى مع قسمهم .. ثمة شعور متوحش غامض فى أعماقى .. إن ضغينة (أهاب) التى لا ترتوى تبدو كأنها ضغينتى أنا .. وقد سمعت قصة ذلك المخلوق الذى أقسمت وسواى على قتله ..

لزمن طويل كان الحوت الأبيض يعيش فى تلك البحار المنعزلة التى يرتادها صيادو حوت العنبر .. لكن أكثرهم لم يعرفوا بوجوده .. وعدد ضئيل جدًا رآه .. أما من اشتبكوا معه فندرة ..

وكان عدم انتظام الرحلات وارتيادها أماكن مختلفة ، مما يجعل تناقل الأخبار بين البحارة شيئًا عسيرًا .. لكن الأخبار تواردت بين البحارة عن مقابلتهم فى خط عرض ما وطول عرض ما ، حوتًا لا يصدق من ناحية الحجم والشراسة .

هذا الحوت كان يهزم مهاجميه دائمًا ثم يفر .. وكان البحارة لا يتحدثون عن هذا الحوت بشكل خاص ، ولكن

يتحدثون عن أهوال مهنة صيد حوت العنبر عامة .. وكانوا يواجهون هذا الحوت باعتباره حوت عنبر خطير آخر ، لكن هذه المقابلة كانت تؤدى إلى كسور وجراح وأطراف مبتورة ، وهلاك إلى أقصى درجات الهلاك .. وفى النهاية بدأت القصة تكتمل ..

إن صيادى الحيتان ليسوا معصومين من الخرافات والإشاعات التى تميز كل البحارة ، لكنهم كذلك الأكثر قابلية للتعرض لأهوال البحر .. وقد اكتسبت حكايات الحوت الأبيض المزيد من الإضافات الأسطورية الطفولية ، وهكذا اكتسب (موبى ديك) طابعًا خارقًا للطبيعة .

إن الكثير من صائدى الحيتان الذين لا تحمل سفنهم العلم الأمريكى ، لم يروا حوت العنبر قط ويعتبرونه وحشًا أسطوريًا من وحوش بحر الشمال .. وحتى (كوفييه) العظيم يقول فى كتابه إن رؤية حوت العنبر تجعل كل الكائنات البحرية بما فيها سمك القرش ترتجف هلعًا .

وهكذا اعتبر البحارة قذف الحربون على حوت عملاق كهذا نوعًا من الانتحار .. كأنك تقذفه بغرض اللحاق بالأبدية .. ومن ضمن الخرافات أن (موبى ديك) كلى الوجود .. أى أنك قد تلقاه على عدة خطوط طول فى الوقت ذاته .. ولا يخلو هذا القول من حقيقة لأننا نجهل الكثير عن تيارات الماء ، ولا نعرف السبل التى

يحمل بها هذا التيار الحوت من موضع لآخر بسرعة البرق .. ومن الأشياء الموثوق بها أن هناك حيتان صيدت فى أقصى جنوب المحيط الهادى ، وفى أجسادها حربون تم قذفه من وقت قريب فى (جرينلاند) بأقصى الشمال .

هكذا تم اعتبار (موبى ديك) موجودًا فى كل مكان ، فكان من السهل على البحارة أن يعتبروه موجودًا فى كل زمان .. أى أنه خالد .. وكل الرماح التى غرست فيه لم تستطع قتله .. دعك من منظره غير المألوف بجبينه العالى الأبيض كالثلج ، والحدبة على ظهره .

أما ما يميزه بحق فهو شره الواضح وشراسته التى تم وصفها كثيرًا .. أحيانًا تطارده السفينة فيفر منها وقد بدت عليه كل علامات الرعب ، وفجأة يستدير ليواجهها فيقلبها أو يجرها فى الاتجاه المعاكس .

كان هناك قارب يطارده وقد استقله قبطان ـ لم يكن سوى (أهاب) ـ يحمل نصلاً يريد غرسه فى الحوت ، هنا استدار هذا الأخير وبفكه الشبيه بالمنجل قضم قدم (أهاب) ، كأنما يحصد العشب فى المرج ..

ومن يومها عاش الحوت فى ذهن (أهاب) يطارده فى كل حين ، مع تلك الرؤى التى يعيش بعض الرجال وهى لا تبرح

أذهانهم .. تلتهمهم .. فيعيشون بنصف قلب ونصف رئة .. تلك الرؤى التى صنع لها القدماء تمثال الشيطان وعبدوه ، لكن (أهاب) لم يعبد هذه الرؤى بل حشدها فى شخص الحوت المقيت .. لقد حشد كل الكراهية وشرور العالم من عهد (آدم) فى حدبة ذلك الحوت .. وحين خرج لهذه الرحلة لم يتوقع أحد أن غرضه الوحيد كان تدمير الحوت .. وانطلقت روحه المجنونة لتصيب الطاقم كله بالعدوى ، حتى أن رغبته صارت رغبتهم .

كانت هناك أشياء كثيرة فى الحوت تثير الرعب ، لكن الشىء الذى أثار رعبى أكثر من سواه كان لونه الأبيض ، ولأننى لعاجز عن تفسير كلامى بشكل واضح .. برغم أن اللون الأبيض فى أغلب الأشياء يعكس الجمال ، كما هو الحال مع اللآلئ وأفيال (سيام) البيضاء التى لا توجد إلا فى بلاط ملكى ، وعذرية وطهر العروس ، وهو رمز القوة والتفوق فى عقائد عدة ..

برغم هذا يثير اللون الأبيض أحيانًا رعبًا شديدًا عندى ، متى ارتبط برمز مخيف .. تأمل الدب القطبى والقرش الأبيض .. ما سر الرعب الذى يثيرانه إن لم يكن اللون الأبيض ؟ إن ارتباط اللون الأبيض بالطهر ثم وجوده فى كائن يتمتع بهذه

الشراسة لهو سر هذا التوجس والرعب .. إن هذا التناقض لمخيف .. إن قداس الموتى فى الكنيسة الرومانية يبدأ بعبارة (ركيويرام إترنام) ـ أى الراحة الأبدية ـ فلابد أن انسياب القرش ونعومته هما سبب إطلاق اسم (ركيوم) عليه ..

★ ★ ★

الفصل الثالث عشر

الخارطة :

اصغوا ! هل سمعت هذه الضوضاء يا (كاباكو) ؟

كان هذا فى منتصف وردية الليل ، وضوء القمر لا بأس به ، والبحارة يقفون فى نطاق ممتد ويتبادلون نقل دلو من الماء من يد ليد ، وفى وسط هذا قال أحدهم ويدعى (أرشى) هذه الكلمات لجاره ..

ـ « شش ! هل سمعت هذه الضوضاء يا (كاباكو) ؟ »

ـ « أية ضوضاء تعنى يا (أرشى) ؟ خذ الدلو ! »

ـ « تحت هذه الفتحات .. كأنها سعلة .. هى ذى ثانية ! كأنما ثلاثة نيام يتقلبون ! »

ـ « بل هو عشاؤك يتحرك فى بطنك ! هلم يا رفيق السفينة ! كف عن الهذيان .. »

ـ « لكننى متأكد من وجود شىء فى بطن السفينة .. شىء لم يظهر على السطح قط .. أحسب القبطان يعرف الأمر ، فقد سمعت (ستاب) و (فلاسك) يتكلمان عنه .. »

ـ « ليكن .. الدلو !! »

★ ★ ★

لو أنك رأيت (أهاب) بعدما أوضح هدف الرحلة للبحارة ، لرأيته ينزل إلى قمرته ، فيخرج من خزانته لفائف خرائط مجعدة ، ويفردها على المنضدة .. ثم يدرسها بعناية .. وقد أفعمت بمسارات رحلات سابقة خرجت من أجل حوت العنبر .. المصباح المعلق بالسلاسل يهتزُّ فيلقى على وجهه ظلالاً غريبة لحاجبيه ، فكأنما يده ترسم على الخارطة خطوطًا ، بينما يد أخرى خفية ترسم خارطة أخرى على جبينه .

لم تكن تلك أول ليلة يخرج فيها خرائطه .. فقد اعتاد هذا كل ليلة .. بالنسبة لمن يجهل عادات الحيتان ، يبدو أمرًا ميئوسًا منه أن تطارد حوتًا بعينه بين المحيطات الأربعة ، لكن ليس بالنسبة لـ (أهاب) .. فهو يعرف تيارات الماء ، وأماكن توافر طعام حوت العنبر ، ومواسم صيده عند خطوط الطول المختلفة .. برغم أن الحيتان تغير عاداتها لكنها ـ بغريزة لا تخطئ أو سمه ذكاءً لا يفشل ـ تمشى فى طرق بحرية معينة يطلقون عليها اسم (الأوردة) ، ومن ثم يمكن لـ (أهاب) أن يجد نقطة يعترض فيها طريق الحوت .. سوف تصير الإمكانيات احتمالات .. والاحتمالات سوف تصير حقائق ..

يغرق (أهاب) فى خواطر الانتقام اللذيذة ويتخيل (موبى ديك) ملقى على السطح يحاول استرجاع قواه .. ينام الرجل فى النهاية وقد تقلصت قبضته ، ويصحو وقد سال الدم من كفه بفعل أصابعه ..

ليرحمك الله أيها القبطان العجوز ! أنت مثل (بروميثوس) تتعذب فى كل ليلة ، ثم يأتى النسر فى الصباح ليمزق كبدك .. النسر الذى صنعته من أفكارك الخاصة ..

★ ★ ★

فى عصر يوم حار رطب ، كان البحارة يتمددون فى كسل فوق ظهر المركب أو يحملقون فى الماء .. وكنت أنا و(كويكونج) ننسج ما يسمونه (حصيرة السيف) لقاربنا .. وبدا كأن كل بحار غارق منهمك فى ذاته .. فكأننى أخيط نسيج قدرى الخاص بيدى ..

كنا منهمكين حين أفزعنى صوت غريب .. عال .. لا يمت للأرض بصلة حتى إننى وقفت أحملق لأرى مصدره .. كان هذا قاذف الحربون الهندى (تاشتيجو) .. كان يقف فوق الصارية وقد فرد ذراعيه وهو لا يكف عن الصراخ .. إنها ذات الصرخة التى يطلقها صيادو الحيتان فى كل مكان ، لكن لابد من رئتين كرئتى هذا الهندى لتكتسب هذا التأثير الفريد .. حين تراه فوق رأسك تشعر كأنما عراف قديم يستكشف قدره .

ـ « إنها تنفث بخارها هناك ! تنفخ !! »

ـ « أين ؟ »

ـ « عكس اتجاه الريح ! على بعد ميلين ! مدرسة من الحيتان ! »

إن حوت العنبر ينفث بخاره كالساعة بدقة زمنية كاملة لا تتغير ، وبهذا يعرف صيادو الحيتان هذه المخلوقات بين سواها .. هرع الخادم ليخبر (أهاب) وهو ينظر لساعته ليحدد الوقت بالضبط .

الآن تتحرك السفينة عكس الريح .. ويعلن (تاشتيجو) أن الحيتان قد هبطت باتجاه الريح .. وتوقعنا فى ثقة أن نقابل الحوت فى طريقنا ، لأن حيتان العنبر تلجأ لهذا الأسلوب المخادع كثيرًا .. تهبط ورأسها فى اتجاه ثم تبدل وضعها بالكامل وهى تحت الماء .. وهكذا تم إنزال الهندى من برج المراقبة ، وإعداد القوارب الصغيرة المتدلية من جوانب السفينة ، وراحت طواقمها المتحمسة تمسك بجوانبها .. كأنهم القراصنة يتأهبون للانقضاض على سفينة العدو .. لكن وسط هذا الحماس كان الكل ينظر إلى (أهاب) الذى تجمعت حوله خمسة أشباح تشكلت من الهواء .

كانت الأشباح تقف جوار القارب وتفك حباله .. هذا القارب كان يعتبر زائدًا ، برغم أنه كان يدعى (قارب القبطان) .. أما الشخص الواقف جواره فكانت له سن تلمع فى الظلام بشكل شيطانى ، وقد تدثر بثياب سوداء من القطن ، وعلى رأسه عمامة يخرج منها شعر أسود كثيف يتدلى على كتفيه وظهره .. وجواره رفاقه الذين هم أقل سوادًا منه ، ولهم لون أصفر نمرى يميز بعض سكان (مانيلا) الأصليين ، وبعضهم رجال بيض يبدو كأنهم العملاء السريون الموثوق بهم فى بحار الشيطان .

وقفنا نرمق هذه المجموعة فى رعب على حين صاح (أهاب) فى قائدهم ذى العمامة :

ـ « مستعدون يا (فداء الله) ؟ »

ـ « مستعدون .. »

ـ « إذن انزلوا بالقارب .. هل تسمعون ؟ »

كان هذا صوته الشبيه بالزئير .. فسرعان ما وثب الرجال بخفة شيطانية إلى القوارب ، وأصدر (أهاب) أوامره بأن ننتشر على سطح السفينة لنغطى أكبر مساحة من الماء .

لقد كان هؤلاء الرجال المخيفون على السفينة من البداية .. هم مصدر الصوت الغريب الذى سمعه (أرشى) من قبل ، وأخبر به (كاباكو) . إنهم سافروا على ظهر السفينة خلسة يا سيدى ..

صاح (ستاب) وهو يمسك بدفة القارب :

ـ « هلموا .. هلموا .. هلموا يا رجال .. لم لا تحطمون عظام ظهوركم ؟ إلام تنظرون ؟ لا تهتموا بشياطين الكبريت هذه .. هذه هى الضربة التى تجلب ألف جنيه .. سارعوا إلى زيت الحوت بقدح ذهبى .. ثلاث تهليلات يا رجال ! لم لا تنتزعون مجاديفكم من مكانها ؟ عضوا بأسنانكم على شىء ما يا كلاب ! هيا .. هكذا هكذا ! ليأخذكم الشيطان يا مجموعة من الأوغاد ! أنتم نائمون تغطون .. اجذبوا الحبال وحطموا شيئًا .. اجذبوا الحبال ولتخرج عيونكم من محاجرها ! فليخرج كل منكم مطواة ويدسها بين أسنانه .. »

كانت هذه طريقته فى مخاطبة الطاقم .. يمزج بين الكلمات المضحكة والغضب .. وقد قام بحساب الغضب بعناية كى يضيف مذاق التوابل إلى الضحك ..

وكان البحارة متوجسين من رؤية هؤلاء الرجال غريبى

الشكل وسطهم .. لماذا أخفاهم (أهاب) عن العيون كل هذا الوقت ؟؟ لكنهم ارتاحوا نوعًا لحقيقة أن (أرشى) كان يعرف وجودهم ، وأن (ستاب) لم يبد مندهشًا ولم يفزعه منظرهم ..

أما عن نفسى فتذكرت أولئك الأشخاص الذين رأيتهم فجر يوم الرحيل يصعدون إلى (بيكود) ، ثم تواروا عن نظرى ..

رأيت (أهاب) ينزل مع الرجال إلى القارب ، ويتخذ مكانه هناك .. فيما بعد عرفت أنه أعد هذا القارب بشكل خاص ودعم أرضيته لتتحمل قدمه الخشبية فلا تتهشم .. من غير المعتاد أن ينزل القبطان بنفسه إلى قارب صيد الحيتان ، لكن (أهاب) كان مصممًا على أن يرى بعينه وعن كثب مقتل حيتان العنبر .. ارتفعت اليد الممدودة ثم ظلت ثابتة فى الهواء .. على حين ارتفعت خمسة المجاديف .. وصاح (ستارباك) :

ـ « فلتقف يا (كويكونج) وتراقب الموقف ! » .

فنهض صديقى آكل البشر ينظر إلى البحر حيث غاصت الحيتان ..

وعلى مسافة غير بعيدة كان قارب (فلاسك) يقف ساكنًا وربانه يقف باستهتار عند المقدمة المرتفعة ، والتى لا يتجاوز اتساعها كف الإنسان .. لكن هذا لم يرق له لهذا طلب من (داجو) الزنجى أن يقترب أكثر ويمنحه كتفه ليتسلق عليه ..

ـ « هذه أفضل وأقوى من أية صارية يا سيدى .. »

ـ « رائع يا صاحبى .. وإن تمنيت لو أنك أطول بعشرين قدمًا .. »

وصعد على كتفى العملاق الزنجى .. إن التوازن المدهش لصائد الحيتان فى قاربه مهما كانت حالة البحر لأمر يثير ذهول من لم يعتده .. وكان الزنجى العملاق يبدو أكثر عظمة ونبلاً من راكبه ، وهو يبدل وضعه فى كل لحظة ليحفظ توازن (فلاسك) .

ساد الصمت وفجأة صرخ الهندى :

ـ « هناك ! هناك ! ها هى ذى الحيتان ! »

وانطلقت أربعة القوارب تطارد تلك البقعة من فقاقيع الهواء ونافورة الزفير .. لكنها كانت تفوقهم سرعة .

كنا نسمع ما يقوله (أهاب) لبحارته الصفر فى قاربه .. ولكن لا يمكن أن أقوله هنا لأننا نعيش فى أمة متدينة ..

فقط يمكن أن تقال هذه الكلمات لأسماك القرش المتعطشة للدماء .. وكنت ترى (أهاب) وقد بدا حاجباه كالإعصار وصارت عيناه حمراوين كالدم ..

فى سياق هذا لا يجب أن يكون للبحارة من أعضاء إلا الآذان ، ولا أطراف إلا الأذرع .. والمشهد أسطورى يثير القشعريرة حين ترى القوارب تسابق الريح ، والأمواج ترتفع حتى لتوشك على أن تشطر القوارب نصفين ، ومن بعيد تنتظر (بيكود) شامخة مهيبة بينما القوارب تبتعد عنها بسرعة .. لا شىء يماثل هذا وحتى لقاء الرجل بأول شبح فى حياته لا يمكن أن يحدث شعورًا كهذا ..

لم يعد الزفير بقعة واحدة بل صارت مجموعة من النافورات المتفرقة .. إن الحيتان تتفرق ومعها تفرقت قواربنا .. ومعها بدأت نذر العاصفة القادمة .

صاح (ستارباك) :

ـ « تلك حدبته .. هلم ! أعطه إياه ! »

قالها لـ (كويكونج) فتصلب ووقف ينتظر .. ثم دوى صوت مندفع من رمحه ، وحدثت فوضى عارمة فى المؤخرة .. وراح شىء يتلوى من تحتنا كأنما هو زلزال .. وفر الحوت الذى

جرحه الحربون فحسب ، لم يتأذ القارب برغم أنه غرق بالماء .. وهكذا عاد من انقلب منا إليه ووجدنا المجاديف .. ازداد عواء الريح وبدأت العاصفة ، ورحنا نلوح للقوارب الأخرى من دون جدوى .. هبط علينا الظلام واكفهر الجو ، هكذا لم يجد (ستارباك) إلا أن يمزق الغطاء الواقى من الماء فيخرج المصباح .. يوقده ويناوله لـ (كويكونج) ليقف به ويلوح طلبًا لغوث القوارب الأخرى .

لكن الليل مر علينا ، وفى الفجر كان المصباح الخاوى يرقد مهشمًا على قاع القارب ، ولا أثر للسفينة على الإطلاق ..

فجأة تصلب (كويكونج) وراح يسمع .. هنا من الضباب برزت لنا السفينة مندفعة على مسافة لا تتجاوز طولها ، فوثبنا جميعًا فى الماء ..

لقد عادت القوارب كلها للسفينة ما عدا قاربنا ، وقد حسبونا غرقنا لكنهم ظلوا يجوبون المنطقة بحثًا عنا .. ورأينا السفينة تقلب قاربنا ثم تمر به .. هكذا عدنا نبحث عنه لنركب فوقه من جديد ..

* * *

الفصل الرابع عشر

تاون هو :

لاشىء مثل صيد الحيتان يعلمك أن تتبنى فلسفة خاصة ، تجعلك تنظر إلى كل كارثة تحل بك على أنها جزء من دعابة عملية كبيرة .. مهما حل بك فهو جزء من النكتة .. وقد تعلمت أن أنظر بهذه الطريقة إلى رحلة (بيكود) كلها والحوت الأبيض العظيم الذى كان هدفنا .

لقد جرونى إلى سطح السفينة ، فصحت وأنا مبتل تمامًا :

- «(كويكونج) يارفيقى الطيب .. هل هذا يحدث دائمًا ؟»

بلامبالاة أفهمنى أن هذه الأشياء تحدث أغلب الوقت .. ففهمت أن خير ما أفعله الآن هو أن أنزل إلى قاع السفينة وأكتب وصيتى .

* * *

انطلقنا من جزر (أزور) إلى (كيب دى فيرديس) ثم ثغر (ريو دى لابلاتا) فأرض (كارول) التى تقع جنوبى (سانت هيلانة) ..

لم تكن ثمة أحداث غريبة ، ما عدا تلك النافورة من الماء التى رآها الرجل ذو العمامة أكثر من مرة فى منتصف الليل فى ضوء القمر .. وكنا ننزل القوارب ونبحث فى الماء بعناية فلانرى شيئًا .. تكررت هذه الظاهرة العجيبة أكثر من مرة حتى تطيرنا منها ..

إلا أننا بدأنا ندنو من (رأس الرجاء الصالح) وهاجمتنا العواصف القاسية المميزة له ..

رأس الرجاء الصالح .. أكذا يسمونك ؟ أم أنت رأس العذاب (كيب تورمنتوتو) كما كانوا يسمونك قديمًا ؟ تحلق فوقنا أرواح معذبة اتخذت شكل طيور البحر ، ومن حولنا أسماك لا هدف لها ولا مرفأ ..

كنا نربط أنفسنا بما يشبه الحبال إلى حاجز السفينة ، بينما تتقاذفنا الأمواج ، وكان (أهاب) يصر على أن يقف معنا وقد غرس ساقه العظمية فى التجويف الذى صنعه لنفسه ، وحتى حين تستريح الطبيعة لم يكن راغبًا فى أية راحة .

وعند الاقتراب من (الكيب) كانت هناك سفينة صيد .. إن (الجام GAM) لفظة لاوجود لها فى أى قاموس ، لكن الآلاف يستعملونها .. لنقل إن معناها : اللقاء الاجتماعى بين

سفينتى صيد حيتان أو أكثر ، تتبادلان التحيات ثم قوارب الزيارة .. ويلتقى القبطانان على ظهر سفينة منهما ، بينما يلتقى كبيرا الضباط على أخرى .

لكن (أهاب) لم يعن بتبادل الكلام مع طاقم السفينة الأخرى ، وهو سلوك غريب بالنسبة لسفن صيد حيتان تلتقى فى الناحية الأخرى من الكرة الأرضية .. إنك لا تلقى مواطنًا لك فى بلد غريبة دون أن تهزّ رأسك بالتحية على أقل تقدير ، أما هذا التجاهل فى هذه الأصقاع فأمر لايمكن تفسيره .

* * *

إن رأس الرجاء الصالح والماء من حوله أقرب إلى طريق سريع تقابل فيه كل أنواع المسافرين .. وقد قابلنا سفينة صيد حيتان اسمها (تاون هو) ، وأغلب طاقمها من البولينيزيين .. وقد أعطتنا فى الـ Gam القصير الذى تم بعض المعلومات عن (موبى ديك) ..

كانت هناك قصة قصيرة سرية لم تبلغ أسماع القبطان (أهاب) ولا قبطان (تاون هو) نفسه .. لقد حكاها أحد البحارة البيض لـ (تاشتيجو) مع توصية شديدة بإبقائها سرًا .. لكن البحار الهندى تكلم كثيرًا فى نومه إلى حد أنه لم يستطع إخفاء باقى القصة حين استيقظ ..

كانت تلك السفينة قد ابتعدت عن (نانتيكوت) بمسافة طويلة ، حين لاحظ البحارة أنها تحتجز كميات ماء أكثر من اللازم ، وافترضوا أن سمكة سيف قد أحدثت فيها ثقبًا أدى لتسرب الماء .. لكنهم لم يجدوا مكان التسرب وقد كان ضئيلاً على كل حال ، لذا واصلوا رحلتهم .

لم يواتهم الحظ الحسن لأن التسرب بدأ يزداد يومًا بعد يوم ..

هكذا قرر القبطان ألا يجازف أكثر وأن يتوقف عند أقرب مرفأ ليبحث عن مصدر التسرب ويصلحه .. وإن لم يشعر بالقلق لأن معه مضخات ممتازة ورجالاً أشداء يمكنهم نزح أية مياه .. وإن صارت عملية النزح تحتاج إلى نحو ساعة يوميًا .

كان الرجال مرهقين لكن أحد الضباط ويدعى (رادنى) كان يتصرف ويشعر فى قرارة نفسه أنه الإمبراطور (شارلمان) لو أن أمه كانت أم (شارلمان) ، وقد قرر أن يرغم أحد البحارة الأقوياء ويدعى (ستيلكات) على طاعة أوامره مهما كانت مهينة .. لهذا اتجه نحوه وهو غارق فى العرق يلتقط أنفاسه وأمره بأن يقوم بتنظيف سطح السفينة .. إن تنظيف سطح السفينة عمل معتاد يمارسه البحارة ربما قبل أن يغسلوا وجوههم ، لكن عملية النزح هنا كانت تحتاج إلى

أقوى الرجال ، وكان من الطبيعى أن يقع عبء النظافة على الضعفاء .. بالإضافة إلى أن الاستفزاز فى الأمر كان واضحًا .. هكذا رفض البحار أمر الضابط ..

أعاد الضابط إصدار أمره وهو يلوح بمطرقة .. فاكتفى البحار بأن نظر له وقال :

- «سيدى .. أنا لن أنظف سطح السفينة .. وأرجو أن تبعد هذه المطرقة .. » .

من جديد كرر الضابط الأمر وهو يلوح بالمطرقة تحت أسنان (ليكمان) ، لكن هذا الأخير لم يتحرك واحدًا على الألف من البوصة ، وقال إنه غير مسئول لو أن هذه المطرقة لمست خده مجرد لمسة ..

لكن الأحمق كان قد اختير لقدره ، وقد لمس خد البحار بالمطرقة .. وفى اللحظة التالية كان على الأرض والدم ينزف من فمه .. واتجه البحار لمقدمة السفينة لكن انقض عليه ثلاثة ضباط وأربعة من رماة الحربون .. هنا لحق به زملاؤه واثنان من (القناليين) كما نسميهم ، وهم قوم شديدو الشراسة والولع بالقتال .. وسرعان ما تكومت أجساد الضباط عند المقدمة ..

خرج القبطان وحاول أن يسدد بعض الطعنات برمح صيد الحيتان ، وصرخ يطالب ضباطه بالقبض على ذلك الوغد وشيه .. لكن (ستيلكات) ورفاقه المتمردين كانوا أقوياء ونجحوا فى اتخاذ متراس عند المقدمة ..

- «أخرجوا من هنا أيها السفاحون القتلة ! » .

كذا صاح القبطان وهو يلوح بمسدسين جلبهما له المضيف .. لكنه أدرك أنه لو قتل (ستيلكات) لقام أعنف تمرد ممكن على ظهر سفينته .

صاح (ستيلكات) من وراء متراسه :

- «لم يكن خطأنا بل خطأه .. قلت له ألا يخز الجاموس البرى .. طلبت منه أن يبعد المطرقة عنى لكنه كان طفلاً .. وأقسم أننى هشمت إصبعًا على خده القذر .. عدنا يا قبطان ألا تحاول جلدنا أو عقابنا ولسوف نصير رجالك .. فقط عاملنا معاملة لائقة .. » .

- «اخرجوا لى ! لن أعد بشىء ! »

فى النهاية اتفق القبطان على أن يخرجوا من مكانهم وينزلوا إلى القاع .. ولم يكن (ستيلكات) راغبًا فى التمرد ، لهذا أقنع الرجال أن ينفذوا هذا الأمر حقنًا للدماء .. واتجه

للقاع ومعه الرجال يزمجرون غاضبين غير راضين عن القرار كأنهم دببة تدخل كهفًا .

على الفور وضع القبطان قفلاً ثقيلاً على الباب الذى يؤدى للقاع ، ثم عين حراسة طيلة الليل خشية أن يتمكن أحد المتمردين من الهرب ..

فى الصباح قدموا للسجناء الطعام والبسكويت وطلب منهم القبطان أن يخرجوا للعمل ، لكنهم رفضوا .. وتكرر هذا ثلاثة أيام كاملة .. فى اليوم الرابع أعلن أربعة متمردين التوبة وغادروا القاع .. فى اليوم الثانى لحق بهم آخرون لم يتحملوا الجو العطن بالداخل مع الطعام الردىء ، فلم يبق إلا ثلاثة رجال ..

كانوا (ستيلكات) ومعه اثنان من (القنالبين) .. وقد راح القبطان يسألهم بسخرية إن كانوا مستعدين للتوبة .. فقد (ستيلكات) صوابه بفعل الجوع والظلام وتراجع رفاقه وسخرية القبطان ، لهذا أعلن لرفيقيه أنه سيغادر السجن حاملاً سكينه الحادة ويحاول الاستيلاء على السفينة .. كان الرجلان يشاركانه الأفكار ذاتها .

إلا أنه حين أغفى وقد اتخذ قراره بصدد الغد ، تحرك دم الخيانة فى الرجلين القنالبين ، وقررا أن يسلماه للقبطان ..

قيداه أثناء نومه ، ثم خرجا إلى القبطان طالبين رضاه وصفحه فقد قبضا على الخائن ..

هنا أصر القبطان على أن يعاقب الثلاثة .. ولم يستثن الرجلين .. ربطهم ضباطه أمام عيون البحارة جميعًا ثم أوسع (القنالبين) جلدًا بسوطه حتى آلمته ذراعه ..

جاء دور (ستيلكات) واتجه القبطان نحوه ، لكن هذا الأخير قال له وهو ينظر له نظرة كنصل السكين :

ـ «لو لمسنى هذا السوط فسوف تموت ! أعدك بهذا !»

ضحك القبطان فى سخرية ، لكن (ستيلكات) همس له ببضع كلمات لم يتبينها أحد .. هنا امتقع وجه القبطان وقال :

ـ «ليكن .. لقد أعفيته من الجلد .. هلموا فكوا قيوده !»

اتجه الضباط لتنفيذ أمر القبطان ، لكن (رادنى) الضابط المغرور ذا الرأس المضمد انتزع السوط .. كان قد شفى من الجرح الذى سببه له (ستيلكات) ، ورأى المشهد فقرر أن يفعل بنفسه ما عجز عنه القبطان ..

ـ «أنت جبان !!»

قالها (ستيلكات) فقال الضابط :

- «ربما أنا كذلك .. لكن خذ هذه .. »

تردد قليلاً لسبب ما ، ثم نفذ عملية الجلد ..

فى النهاية تحرر ثلاثة الرجال وعادت المضخة تعمل ..

إلا أن البحارة نفذوا انتقامًا صامتًا هو أنهم لم يصدروا أى صياح لدى رؤيتهم حوتًا .. هكذا ظلت السفينة عاجزة عن اصطياد الحيتان .. وبالطبع لم يستطع البحارة (القتاليون) أن يختلطوا بزملائهم ، لذا تم وضعهم فى محبس خاص من أجل سلامتهم ..

وفى قرارة نفسه أزمع (ستيلكات) أن ينتقم ..

كان يعرف أن (رادنى) يغفو على سطح السفينة جوار قارب صيد .. وبينه وبين القارب فجوة ليس تحتها إلا البحر .. قدر أن الوقت الأنسب هو الثانية بعد منتصف الليل لتنفيذ انتقامه .. أعد كرة حديدية ثقيلة وحبلاً وتأهب .. لكن الأقدار شاءت أن يتم الانتقام من دون أن تتلوث يده بهذه الجريمة الشنعاء ..

لقد أعلن الناضورجى أن هناك حوتًا .. حوتًا أبيض عملاقًا ..

إنه (موبى ديك) !

ترك البحارة ماكانوا يقومون به وتم إعداد قارب نزل فيه رماة الحربون ، و(رادنى) و(ستيلكات) .. وانطلق القارب يطارد اللون الأبيض الرغوى فوق الماء .. فجأة ارتطم القارب بسلسلة صخور مغمورة فطار منه الضابط الذى كان واقفًا .. هوى فوق ظهر الحوت الزلق بينما اعتدل القارب من جديد .. وفى هذه اللحظة رأوا الضابط محمولاً فوق خاصرة الحوت إلى البحر ، وهو يقف وسط نافورة البخار يحاول جاهدًا أن يثب من فوق الحوت ، لكن (موبى ديك) رآه وفى اللحظة التالية انقض عليه بفكيه .. ثم غاص به إلى الأعماق .

بعد ثوان برز رأس الحوت وقطعة من ثياب (رادنى) بين أسنانه .. حاولت أربعة القوارب مطاردته لكنه تحاشاها جميعًا وفر .

استطاع (ستيلكات) بكثير من الحظ أن يصل (تاهيتى) ، وهناك كانت سفينة تتأهب للعودة إلى فرنسا .. لانعرف ما هو مصير (ستيلكات) ، لكن أرملة (رادنى) فى (نانتكوت) مازالت تنظر للبحر كل ليلة متوقعة أن يعيد لها بقايا زوجها .. أما قبطان (تاون هو) فقد وصل إلى جزيرة يعمرها المتوحشون حيث استطاع أن يبدأ إصلاح سفينته ثم ذهب إلى (تاهيتى) ليحضر نجدة وهكذا استطاع أن يبحر بسفينته من جديد .

* * *

الفصـل الخامس عشر

ستاب يقتل حوتًا :

وصلت السفينة منطقة مليئة بالـ Brit وهى غذاء الحوت الصحيح (حوت جرينلاند) .. فبدا لنا كأنما نحن نعبر حقلاً من القمح الأصفر الذهبى .. وفى اليوم الثانى رأينا حشودًا من الحوت الصحيح التى أمنت على نفسها هجمات صيادى حوت العنبر .. وكان النبات الغريب يلتصق بتلك الستائر العجيبة فى أفواهها .. ومن هذه الوحوش يصدر صوت غريب وهى تفصل سيقان النبات .. لهذا السبب يطلق البحارة على هذا الموضع اسم (ضفاف البرازيل) .. لايمكن أن تصدق وأنت ترى تلك الحيتان إنها ليست صخورًا سوداء .. الأصعب أن تصدق أن هذه الكتل الضخمة فيها أى قدر من الحياة كالذى تجده فى جواد أو كلب .

كنا نتجه باستمرار إلى الشمال الشرقى حيث جزيرة (جاوة) ..

* * *

فى ذات مساء رأينا حبارًا ، وقد أثار ذهولنا لأن الكثيرين من البحارة لم يروه من قبل ، وقد قيل أولاً إنه (موبى ديك) وتم إنزال قوارب للحاق به وبالطبع قاد (أهاب) القارب الأول .. ثم اتضح أنه حبار .. لكن أحدنا لم يستطع نسيان هذه الكتلة الشفافة الهلامية العملاقة التى تغطس تحت الماء ثم تخرج .. وقال البعض إن قوارب صيد قليلة عاشت لتحكى هذه المواجهة فيما بعد ..

كان اليوم التالى حارًا رطبيًا ، ولم يستطع أكثرنا مقاومة النوم من فعل الطقس ورتابة البحر الهادئ أمامنا .. فهذا الموضع من المحيط الهندى ليس مما يمكن وصفه بالحياة .. كان هذا دورى كى أتولى المراقبة .. ورحت أتأرجح ببطء جيئة وذهابًا مع هذا الطقس الخامل ، وهكذا شعرت بأن وعيى يتسرب منى .. كأن روحى تغادر جسدى ذاته وإن ظل الجسد يتأرجح كأنه البندول ..

فجأة رأيت ما يبدو كفقاقيع أمام جفنى المغمضين .. وعدت لوعيى فجأة بشعور كأنه الصدمة .. ويا للعجب ! هناك على بعد قريب من سفينتنا حوت عنبر يتلوى فى الماء ، كأنه بارجة حربية مقلوبة .. ظهره يتألق فى ضوء الشمس كأنه مرآة .. كأنه عجوز يسترخى مدخنًا غليونًا ، لكن هذا الغليون أيها الحوت البائس هو غليونك الأخير ..

وفجأة وكأنما هو سحر استيقظت سفينتنا كلها ، ودوت الصيحات من أفواه الرجال ، مع صوت (أهاب) :

ـ « إلى القوارب .. إبحار فى اتجاه الريح .. »

ويبدو أن الحوت شعر بالصخب ، فما أن نزلت القوارب إلى الماء حتى اتجه عكس الريح ، بهدوء غريب وأقل قدر ممكن من حركات السباحة .. ويبدو أن (أهاب) شعر بأن الحوت ليس خائفًا فأصدر أوامره بعدم استعمال المجاديف ، وعدم الكلام إلا همسًا .

رفع الحوت ذيله العملاق أربعين قدمًا فى الهواء ثم غاص كأنه برج يتوارى ..

هنا فقط أشعل (ستاب) غليونه وقد ضمن فترة راحة .. لكن الحوت ارتفع من جديد وبدأ يتجه لقاربه بالذات .. لقد صار واضحًا أن الحوت يعرف كل شىء عن مطارديه الآن .. وانتهت تعليمات الصمت ..

لقد كان الحوت يندفع مباشرة نحو قارب (ستاب) .. إن رأس حوت العنبر هو أكثر أجزائه خفة وتجويفًا ، لهذا يستعمل هذا الجزء عندما يندفع بسرعة .. ويخرجه من تحت الماء أكثر من سواه ..

صاح (ستاب) والدخان يخرج من شدقيه :

ـ « حركوا القارب يا رجال .. لا تخافوا .. خذوا وقتكم ولكن حركوه بسرعة ! كونوا هادئين ! (الخيار) هو الكلمة الصحيحة .. فقط حركوا القارب كأنه الجحيم والشياطين ذاتها .. »

أطلق رامى الحربون الهندى صيحة حرب .. بينما راح كل بحار يجدف بأقصى ما استطاع ..

ـ « كيى هى ى ى يى !! »

كانت هذه من (داجو) الذى راح يتقلب فى مجلسه كأنه نمر حبيس فى قفص ..

ـ « كالا .. كولو !! »

هكذا قال (كويكونج) كأنما يطبق أسنانه على قطعة لحم شهية .

وانطلق القارب إلى أن أطلق (ستاب) عبارة التحية :

ـ « أعطه إياها يا (تاشتيجو) ! »

يجب على رامى الحربون أن يخرق حدود التحمل البشرى .. فهو يجدف بأعنف ما يستطيع وفى الوقت نفسه عليه أن

يصرخ بأقصى ما يستطيع .. وفجأة وسط هذا الإعياء يسمع العبارة (أعطه إياها) من ثم يضطر إلى التصويب ، ويجب أن تكون رميته دقيقة جدًا وقوية جدًا ..

وانطلق الحربون :

ـ « تقهقروا !! »

وفى اللحظة ذاتها انطلق شىء ساخن فوق معصم كل منهم .. إنه الحبل السحرى الذى يربط الحربون ، ينطلق من بين يدى (ستاب) .. إن الأمر يشبه أن تمسك بسيف العدو ذى الحدين من نصله .. وهذا العدو يحاول طيلة الوقت انتزاع النصل منك ..

ـ « بللوا الحبل !! »

هكذا صاح (ستاب) فى البحار المكلف بهذا ، فملأ قبعته من ماء البحر وراح يسكبه فوق الحبل .. وراح القارب ينطلق وسط الماء الذى يغلى كأنه سمكة قرش .

لقد صار الحبل الآن مشدودًا قاسيًا كأنه وتر (هارب) .. وتشبث كل رجل فى مكانه كى لا يقذف إلى المياه الثائرة ، وبدا لنا أننا عبرنا الأطلنطى والهادى معًا .. فقد كان الحوت يجذبنا خلفه بقوة وصاح (ستاب) :

ـ « شدوا الحبل ! شدوا الحبل ! »

فبدأت الأيدى تجذب الحبل ، وثبت (ستاب) قدميه فى القارب ثم راح يطلق رمحًا تلو الآخر على السمكة .. لقد بدأ المد الأحمر يخرج من كل جوانب الوحش العملاق ، ولم يعد جسده يسبح فى الماء المالح بل فى الدم .. وفى الآن ذاته خرجت من الحوت سحابة تلو أخرى من الزفير الحار .. الشمس تلتمع على هذه البركة الحمراء فترسل إلى الوجوه بريقًا أحمر .

حين دنا القارب أكثر من الحوت تقدم (ستاب) وغرس رمحه فى خصر الحوت ، وراح يغرس أكثر فأكثر ويحركه كأنه يبحث بالداخل عن ساعة ذهبية ابتلعها الحوت من قبل .. لكن هذه الساعة كانت هى الحياة الداخلية للحوت .

هنا انتهى جزء الهدوء لتبدأ المرحلة المرعبة المعروفة بـ (الهياج) .. لقد ثار الوحش وأحاط نفسه بدوامة مريعة .. حتى إن القارب حاول بأية طريقة الابتعاد عن هذا الظلام إلى ضوء النهار .

وراحت نفاثات من الدم الأحمر تخرج منه وهو يتلوى يمينًا ويسارًا .. ثم همدت حركته أخيرًا .. لقد تفجر قلبه !

قال (داجو) :

ـ « لقد مات يا مستر (ستاب) .. »

ـ «نعم .. كلا الغليونين انتهيا !»

قالها (ستاب) وأفرغ غليونه فى الماء وراح يراقب الجثة العملاقة التى أوجدها ..

★ ★ ★

بدأت عملية جر جثة الحوت بوساطة ثلاثة قوارب إلى السفينة .. كنا ثمانية عشر رجلاً لهم ست وثلاثون ذراعًا ومائة وثمانون إصبعًا .. لكن هذه المهمة استغرقت ساعات ..

جاء الظلام لكن أضواء (بيكود) راحت ترشدنا .. وراقبنا (أهاب) إلى أن أصدر أمره المعتاد بربط الحوت إلى جانب السفينة ، ثم انطلق إلى قمرته فلم نره إلى الصباح .. كان ثمة نوع من الإحباط فى سلوكه كأنما مرأى هذا الوحش الميت ذكره بواجبه نحو (موبى ديك) ..

بدأ إنزال الهلب من السفينة لكن ليس للرسو ولكن لربط الجثة إلى جانب السفينة ..

وعلى عكس (أهاب) الكئيب كان (ستاب) مزهوًا بنصره .. وقد صاح فى (داجو) :

ـ «شريحة لحم ! شريحة لحم ! انزل يا (داجو) وهات لى قطعة لحم منه ..»

لم يكن من عادة البحارة التهام شىء من الصيد قبل معرفة ما سيحدث فى الرحلة بعد هذا ، لكن هؤلاء البحارة من (نانتكين) كانوا مولعين بجزء خاص من لحم الحوت عند أكثر طرفيه تحدبًا .. وهكذا عند منتصف الليل تم قطع الشريحة وطهيها ، وجلس (ستاب) يلتهم عشاءه ..

لكن (ستاب) لم يكن الوحيد الذى مثل بجثة الحوت ليلتها ، فقد جاء آلاف من أسماك القرش اجتذبتها رائحة الدم وراحت تحاول الظفر ببعض الدهن .. وكانت زعانفها تضرب جدار السفينة على بعد أمتار من النائمين فى القاع .. وراح كل منها يقضم من جسد الحوت ما يصل حجمه إلى رأس الإنسان .

هكذا تحتشد هذه الوحوش كأنها كلاب تحوم حول مائدة عليها لحم أحمر شهى .. إن لم تكن قد رأيت هذا المشهد فأنت لا تعرف شيئًا عن الشياطين ولا عن عبدة الشيطان .

صاح (ستاب) مناديًا الطاهى الزنجى :

ـ «أيها الطاهى ! هذا اللحم ناضج أكثر من اللازم ! لحم الحوت يجب أن يكون صلبًا .. هل ترى أسماك القرش هذه ؟ إنها تفضل اللحم صلبًا نيئًا .. لماذا لا تذهب لها وتعظها .. قل لها إن الضابط (ستاب) يسمح لها بملء بطونها لكن من دون ضوضاء ! قل لها أن تكف عن ضرب ذيولها بحاجز السفينة ..»

ينحنى الطاهى مطيعًا ويتجه إلى حاجز السفينة ويضىء المصباح ليأمر أسماك القرش بعدم إحداث ضوضاء .. ثم يعود للضابط قائلاً :

- « هذه الوحوش القذرة لا تملك روحًا تصغى للمواعظ .. سيستمرون حتى تمتلئ مَعِدُهم ، ومَعِدُهم لا قاع لها .. »

- « أوافقك على هذا .. والآن نعود لموضوع اللحم .. كم عمرك ؟ » .

- « نحو التسعين سيدى .. »

- « إذن أنت أمضيت نحو قرن على الأرض ولما تتعلم بعد كيف يطهى لحم الحوت ؟ أرى أنه يجب أن تولد من جديد لتتعلم كيف تطهو لحم الحوت .. غدًا نقطع الحوت .. تأكد من أن تقف جوارى وتأخذ بعض لحم الضلوع .. استبق بعض أطراف الزعانف لتخللها لى .. والآن انصرف ولا تنس أن تنحنى قبل الانصراف .. »

★ ★ ★

الفصل السادس عشر

قصة جيروبوام :

من المرعب أن ترى ما تفعله أسماك القرش بجثث الحيتان المعلقة إلى سفن الصيد .. إذ فى العادة تكفى ست ساعات ليتحول الحوت إلى هيكل عظمى ، وهكذا كان على الرجال أن يخرجوا إلى السطح ؛ ليطعنوا هذه الوحوش بالرماح .. فكانوا يسددون الرماح إلى رأس سمكة القرش ، وهى الجزء الوحيد فيها الذى يبدو ذا عقل مفكر .. هنا تبدأ المذابح الحقيقية حين تنقض أسماك القرش الباقية على السمكة الميتة .. بل إن هذه الأسماك التى تفتقر إلى جهاز عصبى يشعر بالألم لا تتورع عن أن تنثنى على نفسها وتلتهم أحشاءها الخاصة .. وهكذا فإن ما يخرج من البطن المفتوحة يصير معقدًا ، هو مزيج من الأحشاء الأصلية والأحشاء بعد التهامها ..

لكن الحذر مطلوب حين تموت السمكة ؛ لأنها تتمتع بحياة خاصة بها ، وقد أخرجنا أحد القروش إلى السطح ميتًا فكاد يقضم يد (كويكونج) حين حاول فتح فكها ..

كانت تلك ليلة السبت ، ولن تجد أبدًا من يخرق قاعدة عدم العمل يوم (السابات Sabbath) مثل صائدى الحيتان .. لقد تحول كل بحار على (بيكود) إلى جزار .. وراح الكل يعمل .

يتم رفع الحوت إلى جانب السفينة ، ثم يتم عمل قطع شبه مستدير ويدخل خطاف فيه .. هنا يئن جسد السفينة وتميل وتشعر أن كل مسمار فيها يحاول الفرار ، مثل بيت عتيق فى عاصفة .. وفى النهاية يستقر الحوت على ظهر السفينة فيتعالى التهليل .. ثم يبدأ تقشير الدهن من حول جسد الحوت كأنه برتقالة .

يتقدم حملة السيوف لتقطيع شرائح من جسد الحوت ، ويزيلون ما يدعوه بـ (البطانية) .. وهو تعبير موفق لأنه يلف الحوت تمامًا .. كيف كان حوت (جرينلاند) سيعيش لو لم يكن مزودًا بهذه البطانية الدافئة المريحة ؟ لا تنس أنه حيوان يتمتع برئتين وله دم دافئ ..

ألا فلتتعلم أيها الإنسان من الحوت ! تجعل نفسك باردًا مستريحًا عند خط الاستواء ، ودفيئًا حار الدماء وسط ثلوج الشمال .

يتم انتزاع رأس الحوت ، وهى عملية جراحية بالغة التعقيد تحتاج إلى براعة غير عادية .. ثم يتم إلقاء الرأس فى البحر ووزنه يبلغ ثلث وزن الحوت .

تنتهى عملية انتزاع المواد المفيدة من الحوت ، فيتم دفعه ليسقط فى الماء .. مازال جسده عملاقًا ولم ينته بعد .. هكذا تبدأ جنازته الغريبة حيث تنتظره أسماك القرش وطيور البحر . قروش البحر - والسماء كلها سوداء اللون كأنها تلبس الحداد - كلها لم تكن على استعداد لتقديم العون له فى حياته ، أما الآن فهى قادمة إلى مأدبة الجنازة فى حماسة .

* * *

رأينا سفينة غريبة لصيد الحيتان تتقدمنا بمسافة يصعب اللحاق بها ، لهذا أطلقنا إشارات ضوئية لعلها ترانا .. يجب أن أقول هنا إن سفن صيد الحيتان لها شفرتها الخاصة مثل سفن البحرية العسكرية .. هكذا يعرف ربابنة سفن الصيد بعضهم دون عناء وعلى مسافة طويلة .

حين انطلقت إشارات السفينة الغريبة عرفنا أنها (جيروبوام) من (نانتيكوت) .. ونزل قارب منها اتجه نحونا .. أمر (ستاربك) بإنزال سلم ليصعد القبطان عليه إلى سفينتنا ، لكن راكب القارب أشار بما معناه ألا داعى لذلك .. وعرفنا أن وباء أصاب السفينة وأن قبطانها (مايهو) يخشى أن ينقل الوباء لنا .. لكن هذا لم يمنع استعمال المجاديف كى تظل السفينة على بعد ياردات منا .

هكذا دار الاتصال بين السفينتين لا يقطعه إلا الموج الذى يباعد بين السفينتين من حين لآخر .. وكان الرجل الذى يمسك بالمجداف ضئيل الحجم أشقر يملأ النمش وجهه ، وغريب المنظر حتى بالنسبة لمهنة الحيتان الخشنة ، وقد تذكره (ستارباك) على الفور .. كان قد سمع قصصًا عنه ، واسمه (جابربيل) ..

هذا الرجل كان يعيش فى (نانتيكوت) ـ وينتمى إلى جماعة دينية مخبولة .. قبلته السفينة (جيروبوام) ضمن بحارتها .. فلما تحركت السفينة راح يمثل دورًا أجاده بشدة هو التظاهر بالتصوف والورع ، كأنه يملك شفافية خاصة ، بل اعتقد أنه رئيس الملائكة .. وقد أثرت طريقته الشاردة الغريبة فى عقول البحارة حتى إنهم بدءوا يرون فيه لونًا ما من القداسة ..

أما القبطان البائس فلم يعرف كيف يتخلص منه .. لقد حاول أن ينزله فى أول ميناء ، لكن الرجل أخرج زجاجة فيها ماء مقدس ما ، وراح يرشه على السفينة مهددًا بحارتها بالويل والثبور .. هكذا اتجه البحارة المؤمنون بالخرافات إلى القبطان وقالوا له إنه لو نفذ تهديده فلن يبقى بحار واحد على ظهر السفينة ..

لما انتشر الوباء فيما بعد ، راح يؤكد للبحارة أنه ـ الوباء ـ تحت أمره ، وأنه يستطيع القضاء عليه لو أنهم أسعدوه .. هكذا علت مكانته وراح البحارة يتزلفون له بل أوشكوا على عبادته .. هذه أشياء تبدو غريبة لكنها حقيقية تمامًا ..

نعود الآن لـ (بيكود) ..

قال (أهاب) للقبطان (مايهو) الواقف على ظهر سفينته :

ـ « أنا لا أخاف وباءكم .. تعال إلى السطح .. هل رأيتم الحوت الأبيض ؟ » .

قال (جابربيل) :

ـ « فكر .. فكر فى قاربك .. فكر فيه مقلوبًا غارقًا ! احترس من الذيل ! » .

تجاهل القبطان ذلك المخبول الواقف جواره ، وراح يحكى ـ مع الكثير من المقاطعة ـ قصة السفينة مع (موبى ديك) .. لقد سمعوا عن (موبى ديك) بعد الإبحار .. وراح (جابربيل) ينصح القبطان بعدم التعرض لهذا الحوت لأنه إله الكويكرز متجسدًا ..

بعد عامين قابلت هذه السفينة (موبى ديك) فأصر (ماسى) الضابط على أن يظفر به ، وبالمثل لم يرد القبطان للضابط أن ينال وحده هذا الشرف ..

هكذا تم إنزال قارب فيه (ماسى) وأربعة رجال .. وبعد عدة مناورات تمكن من غرس رمح فى جسده .. فى الوقت ذاته على ظهر السفينة كان (جابرييل) يأتى بحركات غريبة ويستمطر اللعنات على هؤلاء الكفرة الذين يريدون قتل إلهه ..

كان (ماسى) يقف فى القارب ، حين ظهر جسم عملاق أبيض ووثب فى الهواء ليزفر .. وليحتبس الهواء فى صدور البحارة جميعًا ..

فى اللحظة التالية طار الضابط التعس فى الهواء ، ورسم جسده قوسًا أثناء الهبوط .. ثم غاص فى البحر .. لم يصب بحار واحد ولم يتأذ قارب .. هذا الحادث على العموم هو أكثر الحوادث شيوعًا فى مهنة صيد الحيتان ..

لكن هذا الحادث المريع زاد من تأثير (جابرييل) وسط البحارة .. وقرر البحارة أنه تنبأ بما سيحدث وربما سببه .. بدلاً من حقيقة أنه ذكر نبوءة عامة قد تصدق وقد تخيب .. هكذا صار (جابرييل) رعبًا حقيقيًا على ظهر السفينة ..

قال (أهاب) وقد انتهت القصة :

ـ «أنا مصمم على صيد هذا الحوت .. »

هنا أشار له (جابرييل) بإصبع واحدة وراح يردد :

ـ «فكر فى الكافر المجدف الذى غرق ! فكر ! تحت !! »

هنا تذكر (أهاب) أن معه خطابات موجهة إلى أحد ضباط السفينة (جيروبوام) .. إن كل سفينة صيد تحمل عددًا من الخطابات الموجهة لعدة سفن ، ووصول هذه الخطابات يعتمد على احتمال لقاء السفينة وسط المحيطات الأربعة .. لهذا لا تصل بعض الخطابات ، وبعضها يصل بعد عامين أو ثلاثة .

جاء (ستاربك) بالخطاب الذى كان متواريًا فى القمرة .. حيث لا يصل إليه أحد ، وفتح المظروف بسكين ثم قرأ (أهاب) المدون على الخطاب بصوت عال :

ـ « السيد (هارولد ماسى) .. سفينة (جيروبوام) .. هذا خط أنثوى بلا مراء .. امرأة الرجل كما أعتقد .. وهو قد مات ! »

ـ « البائس .. لكن دعنى آخذ الخطاب على كل حال .. »

مدّ (أهاب) يده برمح ثبت الخطاب على طرفه ليناوله

القبطان دون أن يدنو منه أكثر من اللازم ، لكن الخطاب سقط فى يد (جابرييل) فأطلق صيحة فرح ، وغرس فيه مديته .. ثم قذف بالمدية والخطاب إلى سفينتنا من جديد .. هكذا استقر الخطاب عند قدمى (أهاب) ..

ـ « احتفظ به ! فأنت ذاهب فى نفس الطريق حالاً ! »

وأصدر تعليماته للبحارة كى يبتعدوا بالسفينة عن سفينتنا فأطاعوه بلا تردد ..

★ ★ ★

الفصل السابع عشر

ستاب وفلاسك يقتلان حوتًا صحيحًا :

يجب أن أقول هنا إننا ظللنا طيلة الوقت نعلق رأس حوت العنبر على جانب (بيكود) .. ليس لدينا وقت للعناية به ، لكننا ندعو الله أن تتحمله الخطاطيف .. كنا نرى الكثير من الحيتان الصحيحة فى هذه المياه ، ولم يكن اصطياد هذه الكائنات قليلة الشأن مما يهمنا ، كما أن صيدها لم يكن فى خطة (بيكود) أصلاً .. لكن القبطان أمر باصطياد حوت صحيح ، وهكذا هبط (ستاب) و(فلاسك) فى قارب ..

توارى القاربان وراء الأفق ومرت بضع دقائق .. ثم رأينا أن أحد القاربين يندفع نحو سفينتنا مسرعًا وقد بدا أن حوتًا يجره خلفه .. دنا الوحش منا إلى حد لا يصدق ، ثم غاص فجأة وسط اضطراب عظيم .. وتوارى تحت مقدمة السفينة ..

صاح رجال السفينة فى القاربين :

ـ « اقطعوا الحبل ! اقطعوا الحبل ! »

فقد بدا كأن القاربين مقبلان على الاصطدام المروع بجانب السفينة ..

لكن القاربين كانا يملكان طولاً كافيًا من الحبل ، لهذا أرخيا المزيد للحوت ..

كانت تلك لحظات بالغة التوتر ، وفجأة مر الحبل تحت مقدمة السفينة .. فاضطربت السفينة وراحت تترجرج بعنف .. ثم خرج الحوت من تحت الماء ودار دورة كاملة حول سفينتنا والقاربان يتعلقان به ..

قصر القاربان الحبلين حتى إنهما صارا إلى جانبى الحوت ، وأطلق (فلاسك) رمحه فأجاب عليه (ستاب) برمح آخر ، وانطلقت أسماك القرش التى كانت تطارد بقايا حوت العنبر ، تلاحق قطرة بقطرة الدم الطازج الجديد ..

فى النهاية انقلب الحوت على ظهره وتحول إلى جثة ..

راح القاربان يجران الحوت ليربطاه إلى جانب السفينة ..

قال (ستاب) :

ـ « لكن من الخطر أن نربط رأس حوت عنبر معلقًا وجسد حوت صحيح إلى جانب السفينة .. هذا خطر .. (فداء الله) يقول إن هذا خطر ، وأحسبه يعرف ما يقول .. »

قال (فلاسك) :

ـ « فليغرق هذا الرجل ! إننى لأنظر إلى وجهه فى الظلام

فأرتجف رعبًا .. لاشك عندى فى أن هذا هو الشيطان ذاته .. لابد أنه موجود معنا لأن الرجل العجوز يشتهى قتل ذلك الحوت (موبى ديك) ، ويبدو أنه أجرى صفقة ما مع الشيطان .. سيعطيه روحه أو شيئًا من هذا القبيل مقابل أن يقتل له (فداء الله) الحوت .. »

قال (ستاب) :

ـ « إنه ينام بحذائه .. وليس معه غليون .. لكنى ذات مرة رأيت الدخان يخرج من فمه فى حلقات ! » .

ـ « إنه الشيطان .. وأراهن أنه يخفى ذيله فى جيبه أو تحت ثيابه .. لكن هل تعتقد أنه سيخطف القبطان (أهاب) ؟ »

ـ « سوف تعرف هذا .. لكنى سأراقبه وإن رأيت ما يريب سأمسك به من قذاله وأقول له : انصرف يا (بعلزبول) ولا تحدث ضوضاء .. سأمد يدى فى جيبه وأخرج ذيله ، ثم أجره إلى رافعة المرسى وأشبعه شدًا حتى ينقطع .. »

ـ « وماذا تفعل بباقى الذيل ؟ »

ـ « أفعل به ؟ سأبيعه على أنه سوط للثيران بمجرد عودتنا .. »

وهكذا تم رفع الحوت ، وبعد قليل علق رأسه من الجانب الآخر .. كانت السفينة مائلة بسبب رأس حوت العنبر ، أما الآن فإنها توازنت وإن صارت تحت ضغط هائل .. هكذا الأفكار التى تثقل رءوسنا .. تميل من جهة بأفكار ومن جهة أخرى بأفكار ، فلو أنك تحررت من هذه المعتقدات الثابتة لمضيت برأسك أكثر خفة ..

* * *

الفصل الثامن عشر

فى رأس الحوت :

حدث حادث غريب بينما نحن نفرغ الزيت من رأس حوت العنبر المعلق على سفينتنا .. ربما استهتر (تاشتيجو) ـ ذلك الهندى المتوحش ـ فتخلت قبضته عن حبال الخطاطيف التى تعلق الرأس ، بينما هو يقف فوقه .. أو ربما كان المكان الذى يقف عليه زلقًا .. لا نعرف بالضبط .. ما نعرفه هو أن (تاشتيجو) البائس هوى ورأسه لأسفل ، كأنه دلو يهوى فى بئر .. وسرعان ما اختفى عن عيوننا داخل تجويف الرأس ذاته ! فى الجزء المحتوى على الزيت والذى يطلق عليه البحارة اسم Heidelburgh Tun ..

صاح (داجو) الذى استعاد وعيه بسرعة :

ـ «رجل سقط من على السطح !»

وطلب دلوًا ليقف عليه كى يهبط به .. بينما راح الرأس الميت يتأرجح كأنما استبدت به فكرة ما ، والحقيقة أن هذه كانت محاولات الهندى للخروج ..

فى هذه اللحظة ولرعب الجميع دوى صـوت مـع انقطـاع الحبل الـذى يربـط أحـد الخطاطيف التى يتعلق بهـا الـرأس ، ومال الرأس المعلق فتأرجحت السفينة كأنما جبل جليد خفى قد ضربها .. وبدا الحبل البـاقى الـذى صار يحمـل الـرأس بالكامل موشكًا على الانقطاع ..

تشبث (داجو) بالحبل ، حتـى إذا هوى الرأس ظل (داجو) معلقًا بالحبل .. وقام بإنزال الدلو لأسفل حتى يتمسك بـه الهندى الحبيس بالداخل .

صاح (ستاب) :

ـ «باللـه عليك توقـف ! مـاذا تفعلـه ؟ هل تقوم بتعبئـة خرطوش ؟ لو هوى هذا الدلو الحديـدى علـى رأسـه لقتلـه ! توقف ! » .

فـى اللحظـة التاليـة هوت الكتلـة العملاقـة فـى البحـر .. وتـأرجحت السفينة كأنمـا تعلـن تحررهـا أخـيرًا .. وطـار (داجو) المتـأرجح مـن الحبل فـوق الرءوس بينمـا غـاص (تاشنجو) فى قبره الحى نحو أعماق المحيط !

فجأة لمحنا خيال إنسان عـار يقـف فوق الحافـة .. وبعد ثانية كان صديقى الشجاع (كويكونج) يثب إلى المـاء حـاملاً سيفه .. لينقذ الهندى .. وتصلبت العيون على المـاء تبحث عن أثر للغريق أو الغطاس ..

فجأة صاح (داجو) المعلق فى الفضـاء .. نظرنـا فرأينـا يدًا تخرج من البحر الأزرق كأنها يد تخرج من العشب فوق قبر ..

وفـى اللحظـة التاليـة رأينـا (كويكونـج) يسبح بيد وبـالأخرى يمسك بشعر الهندى ..

كيف أنقذه ؟ لقـد سبح حتى بلغ الرأس ثم طعنه بالسيف ليحدث فيه فتحة دائرية .. وألقى بالسيف ومـد يـده إلـى أن التفت حـول شـعر الهنـدى .. وهكـذا تمـت ولادة الهنـدى ـ بالضبط ولادة متعسرة ـ من خـلال الفتحـة التى أحدثهـا (كويكونـج) الشـجاع .. وهنـا درس لا يجـب أن ننسـاه : التوليد فن يجب أن يتعلمه الرجـل مثلـه مثـل الملاكمـة والمبارزة والتجديف ..

لكن لماذا غرق الرأس ونحن نحسبه أقل كثافة من جسـد الحوت ذاتـه ؟ الجواب سهل .. وهو أن أكثر الأنسجة الخفيفة قليلة الكثافة تم انتزاعها من الرأس فلم تبق إلا الأجزاء الأثقل من الماء .. ولو لم يخرج (تاشنجو) لكانت ميتـة غريبـة .. كان سيدفن ويكفن فى قدس أقداس الحوت .. هذا يذكرنـى بنهاية بعض صيادى العسل فى (أوهايو) حين يميلون أكثر من اللازم على جذع الشجرة لجمع عسل أكثر ، هنا ينزلقون إلى أسفل ويدفنون فى العسل للأبد ..

* * *

الفصل التاسع عشر

بيكود تلتقى السفينة (فيرجين) :

كان مقدرًا لنا أن نقابل السفينة (يونجفراو Jungfrau) من (بريمن) ..

لقد صار خير صيادى الحيتان فى الماضى - وهم الألمان والهولنديون - أقل الشعوب شأنًا فى هذه المهنة ، لكنك قد تقابل بعضهم عند خطوط عرض وطول غريبة ، ولسبب ما كانت (يونجفراو) متحمسة للقائنا فأنزلت قاربًا وقف عليه قبطانها قاصدًا سفينتنا ، وكان يحمل فى يده شيئًا لم نفهم ما هو .. ثم اقترح (ستارك) أن يكون ما يحمله هو أداة تزويد المصابيح بالزيت .. يبدو أن هذا القبطان جاء يشحذ منا بعض الزيت ، وهو شىء غير مفهوم بالنسبة لسفن صيد حيتان المفروض أنها مليئة بالزيت ، لكن كل شىء متوقع فى هذه المهنة .

حين وصل الرجل ورحب به (أهاب) عرفنا أن (ستارك) كان على حق ، وأن السفينة (يونجفراو) لم تكن عليها قطرة زيت واحدة وهذا ما يناسب اسمها الذى يعنى (فيرجين - العذراء) بلغتنا ..

ما كاد الرجل يغادر سفينتنا حتى تعالت الصيحات من السفينتين أن هناك حيتان ، هكذا نسى الألمانى موضوع الزيت وانطلق مع رجاله يطاردون الحيتان ، ولحقنا نحن بهم .. فلم نرغب قط فى أن يسبقنا الألمان (صناديق الزبد) - كما يسميهم (فلاسك) - إلى هذا الصيد الوفير ..

* * *

تشكل شبه جزيرة (ملقة) الممتدة جنوبى شرق (بورما) أقصى جنوب آسيا .. ومنها تمتد جزر (جاوة) و(سومطرة) و(بالى) و(تيمور) التى تشكل سورًا يصل آسيا بأستراليا .. وفى هذا السور توجد ثغرات تعبرها السفن .. إن هذه الجزر غنية إلى حد لا يصدق بالتوابل والذهب لهذا يبدو كأن السور خلق لحماية هذه الكنوز من جشع العالم الغربى .

كانت (بيكود) الآن تجوب هذه الأصقاع ، وكان (أهاب) ينتوى الوصول إلى بحر (جاوة) ثم يتجه شمالاً حيث تعج المياه بحيتان العنبر ، حتى يصل إلى اليابان مع بداية موسم الصيد .. كان بشكل ما ينوى مقابلة (موبى ديك) فى بحر يعرف أنه يرتاده ، وفى فصل يعرف أنه يظهر فيه .. لكن ألا ينوى أبدًا أن يرسو على الأرض ؟ إن الطاقم يحتاج إلى

الفاء .. ثلاث سنوات من شرب الماء الذى ادخروه فى (نانتيكوت) .. هناك سفن ارتحلت من (نيويورك) إلى الصين وعادت مرارًا .. بينما سفينة صيد الحيتان لم تر أرضًا ولم يلق بحارتها أناسًا إلا بحارة مثلهم .. ولو قلت لهم إن طوفان (نوح) قد حدث ثانية ، لقالوا لك : لا مشكلة .. نحن فى الفلك بالفعل !

عبر خط الأفق ترى مئات النافورات تحييك .. إن نافورة الزفير الخاصة بحوت العنبر مستقيمة ثخينة مندفعة للأمام ، على عكس نافورة الحوت الصحيح التى تنقسم إلى فرعين متساويين ..

يجلس رماة الحربون فى قواربهم يلوحون بسلاحهم ، ويتصايحون بينما القارب لم ينزل بعد .. من يدرى ؟ لربما كان (موبى ديك) وسط هذا الحشد كأنه الفيل الأبيض المقدس فى حفل تتويج فى (سيام) ..

فجأة سمعنا ضوضاء من ورائنا .. نظرنا فوجدنا نافورة أخرى تتبعنا لكنها لا تشبه نافورة الحوت .. بل هى مستمرة لا تنقطع ، ونظر (أهاب) بمنظاره المقرب إلى المشهد ثم صاح :

ـ «بللوا الأشرعة بالماء .. هناك قراصنة من الملايو يتبعوننا !»

وانطلقت (بيكود) بأقصى سرعتها تطارد الوحوش التى أمامنا ، وتفر من الوحوش التى تطاردنا .. فلم يكن لهؤلاء القراصنة دور إلا دور السوط الذى يلهبنا ويجعلنا نضاعف من سرعتنا .. لقد ألهب هذا حماس (أهاب) .. فلربما هو ماض إلى انتقامه الآن بينما تحييه جوقة من القراصنة المتوحشين الظامئين للدم ، وتهلل له وهو يمضى إلى المشهد الذى طالما حلم به .. صار حاجباه كشاطئ من الرمل الأسود بعد عاصفة ..

فى الحقيقة كان قاذفو الحربون قلقين لأن الحيتان قد بدأت تفر من سفينتنا .. أكثر من فرحتهم بأن سفينتنا قد أحرزت السبق على مطاردينا القراصنة .

لكن الحيتان أبطأت أخيرًا ، فتم إنزال القوارب .. وشعرت بها الحيتان بتلك الحاسة المذهلة لديها .. فوقفت متراصة والزفير يخرج منها كأنها حراب مشهرة .. برغم هذا ما أن اندفعنا وسطها حتى بدت معدومة الحيلة إلى حد يثير الشفقة .. هكذا تتصرف كل المخلوقات حين توجد فى قطيع .. الأغنام التى يهاجمها ذئب يمكنها مجتمعة أن تقضى عليه ، لكنها تتفرق وتفر .. وكذا يفعل الناس حين يحتشدون فى قطيع فى مسرح حين يشب حريق .. إنهم يجرون ويتزاحمون ويهشمون بعضهم ..

صوب (كويكونج) رمحه وأطلقه على أحد الحيتان، فراح هذا يتلوى .. واندفع نحو حشد الحيتان، وهى حركة متوقعة دائمًا لكنها خطرة .. أعمى أصم يندفع الحوت ونحن وراءه نشق دربًا أبيض فائرًا وسط المياه .. لكن (كويكونج) يتماسك ويتشبث بالحبل، بينما (ستارباك) لا يفارق المجدافين .

كان الرجال يقذفون على الحيتان قطعة معينة من الخشب تثبت إلى الحربون .. هذه القطعة اختراع هندى قديم .. إنك لا تقابل حيتان العنبر إلا بصعوبة، فلو قابلتها عليك أن تقتل أكبر عدد منها .. أما إذا كان ذلك عسيرًا كما هو الحال الآن فعليك أن تضع علامة عليها، لتصطادها فيما بعد حين تجد الوقت الكافى ..

شيئًا فشيئًا راح الحوت يجرنا إلى وسط الحيتان الأخرى .. وبدأنا نشعر بالخطر لأن هناك دوائر متداخلة من هذه الحيتان، كأنها جدار محكم يحيط بنا .. فى الدائرة المركزية كانت الأبقار والأغنام لهذا القطيع .. بمعنى آخر الإناث والأطفال .. وهذا يدلك على الحماية التى تبسطها هذه المخلوقات على الأفراد الأضعف ..

هذه الصغار كانت معدومة الخبرة ولا تخاف .. ولكم من

مرة دنا أحدها نحو قاربنا ليلمسه بأنفه كأنه كلب مدلل، وقد ربت (كويكونج) رأس أحدها .. لكن أحدًا لم يجسر على قذف حربون عليها ..

نظرنا إلى أسفل عبر الماء الشفاف فرأينا منظرًا لا يمكن نسيانه .. الأمهات تعتنين بالصغار فى أغرب حضانة يمكن أن تراها .. بعض الأمهات كن مكتنزات أكثر من اللازم مما يشى بأنهن على وشك الولادة ..

وفى الدائرة الخارجية كانت القوارب منهمكة فى وضع علامات على الحيتان .. هنا حدث أن حوتًا تلقى ضربة الحربون، فثار وماج .. وكانت النتيجة هى أن ذيله تعلق بالحبل ولم يستطع التحرر .. انتابه هلع خرافى وألم لا يوصف وراح يضرب فى كل اتجاه على غير هدى، مطيحًا برفاقه ذات اليمين وذات اليسار .. وحدثت فوضى عارمة وبدأت الحيتان تفر منه إلى تلك الدائرة الداخلية التى حبستنا فيها ..

صاح (ستارباك) فى رعب :

- « إلى المجاديف ! إلى المجاديف ! أنقذوا أرواحكم ! يا الله ! قفوا يا رجال ! أعد حربونك يا (كويكونج) .. اضرب ! اضرب !! »

كان القارب الآن محشورًا بين جسدين عملاقين بينهما مضيق .. فاستطعنا المرور .. كررنا المحاولة عبر أضيق الأماكن حتى استطعنا بمعجزة أن نخرج إلى الدائرة الخارجية .. برغم أن الحيتان المندفعة كانت تمر بنا بسرعة ..

واحتشد السرب من جديد ثم انطلق هاربًا بسرعة لا تصدق .. ولم يبق لنا إلا أن نحاول صيد بعض الحيتان التى وضعت عليها العلامة ، أو أن نعود بحوت اصطاده (فلاسك) .. على الأقل نضع عليه علامة تثبت ملكيتنا له فى حالة ما إذا سبقتنا سفينة أخرى إليه ..

هذا الموقف يبرهن على ما يقوله صيادو الحيتان : كلما كَثُرَت الحيتان قل الصيد .. حتى الحيتان التى علمناها لم نظفر إلا بواحد منها ، أما الحيتان الباقية فظفرت بها سفينة أخرى ..

★ ★ ★

الفصـل العشرون

بيكود تلقى (برعم الوردة) :

مرَّ أسبوعان بعد المغامرة الأخيرة .. حين بدأت الأنوف على (بيكود) تشم رائحة كريهة فى البحر .

من بعيد رأينا سفينة واقفة يبدو من منظر أشرعتها أنها تشرح حوتًا .. كانت تحمل العلم الفرنسى ، وأدركنا من الرائحة أنها تتعامل مع حوت مما يسميه البحارة blasted whale أى حوت مات فى البحر ولم يقتل .. يمكنك أن تتخيل الرائحة التى تحدثها كتلة اللحم الهائلة هذه .. أسوأ من رائحة مدينة آشورية ضربها الطاعون ، وسكانها عاجزون عن دفن موتاهم ..

لا يوجد صياد حيتان يعرف عمله يمكن أن يهتم بحيتان كهذه ، لأنها خالية من الزيت تمامًا .. أو زيتها ردىء لا يصلح لشىء ..

نظر (ستاب) إلى الحوت فرأى آثار سكينه التى غرسها فى لحم هذا الحوت قرب الذيل .. قال فى سخرية :

ـ «كنت أعرف أن هؤلاء الفرنسيين شياطين صغار ..

شياطين لا يعرفون شيئًا عن الصيد .. وكل ما يحصلون عليه من زيت لا يكفى لإشعال فتيل مصباح القبطـان .. فلنخـرج قبعـة ونجمـع لهم صدقـة مـن الزيـت الـذى نسـتطيع الاسـتغناء عنه .. إننا لو حككنا الصارية لحصلنا على زيت أكثر ممـا سيحصلون عليه من هذا الحوت .. لكن .. ربما هناك شـىء أهم فى هذا الحوت .. العنبر .. هذا يستحق المشقة .. »

طلب إعداد القارب ونزل فيه ليقترب أكثر من هؤلاء القوم ..

واستطاع أن يرى ما كتب على السفينة : (بوتو دى روز) .. أى (برعم الوردة) .. هذا الاسم الشـاعرى لهـذه السـفينة كريهة الرائحة .. اضطر إلى الاقتراب أكثر من السفينة ممـا جعله الآن أقرب ما يكون للحوت الميت .. وصاح :

ـ « يا بحارة (بوتو دى روز) ! هـل منكـم مـن يتكـلم الإنجليزية ؟ »

ـ « نعم .. »

كان هذا صوت رجل اتضح أنه كبير الضباط ..

ـ « هل رأيتم حوتًا أبيض ؟ »

ـ « أى حوت أبيض ؟ »

ـ « موبى ديك .. »

ـ « لم نسمع عن شىء كهذا قط .. »

هكذا عاد القارب إلى سفينتنا .. وصاح فى (أهاب) :

ـ « لا شىء يا سيدى .. »

عند سماع هذه الكلمات عاد (أهاب) إلى قمرته .. وعاد القارب إلى السفينة ليجد (ستاب) أن الضابط يضع أنفه فى كيس وهو يعمل فسأله :

ـ « ماذا أصاب أنفك ؟ هل تحطم ؟ »

ـ « ليته تحطم أو ليتنى بلا أنف .. »

ـ « إن الهـواء هنـا جميـل .. كأنه آت مـن حديقـة ! لكن بعيدًا عن المزاح ، لا أعتقد أنكم ستظفرون بقطرة زيت من هذا الحوت .. »

ـ « أعـرف مثلك لكن القبطـان لا يصدق هذا .. فهى أول رحلة له .. تعال إلى سفينتنا لتخبره لعله يصدقـك ، فتريحنـا من هذه المهمة القذرة .. »

كان البحـارة يعمـلون على ظهـر السـفينة ، وهم يسدون أنوفهم .. بعضهـم كـان يدخـن الغليون حتـى تمـلأ رائحتـه خياشيمهم .. كانوا يعتقدون أن هذه الرائحة تجلب الطاعون ..

ولاحظ (ستاب) أن أحدًا على السفينة لم يتكلم عن العنبر .. تلك المادة الثمينة التى يتم استخراجها من حيتان العنبر السقيمة .. وكان طبيب السفينة حانقًا لأن القبطان لم يصغ له .. خرج القبطان وكان رجلاً ضئيل الحجم كث الشارب متأنقًا .. فتولى الفرنسى الأول مهمة الترجمة ..

ـ «ماذا أقول له ؟»

ـ «كبداية قل له إنه يبدو طفلاً ولا يوحى بالثقة ، وإن كنت لا أصلح حكمًا فى هذه الأمور .. قل إننا قابلنا أمس سفينة مات قبطانها وعدد من ضباطها وبحارتها بسبب حمى أصابتهم من التعامل مع حوت ميت .. قل له كذلك إنه لا يبدو لى أكثر كفاءة لقيادة هذه السفينة من قرد (بابون) .. »

نقل المترجم بعض هذا الكلام للقبطان فبدا مهتمًا بشدة .. واتجه إلى البحارة ليأمرهم بفك الخطاطيف عن الحوت ..

ـ «قل له كذلك إننى تلاعبت به وخدعته .. »

ـ «إنه يشكرك ويدعوك لقمرته لشرب بعض (البوردو) .. »

لكن (ستاب) أصر على الرحيل ، ونزل فى قاربه .. وبدأت السفينة الفرنسية تبتعد .. ثم دنت (بيكود) ، واتخذت موضعًا استراتيجيًا بين قارب (ستاب) والسفينة الفرنسية ، حتى لا تبصر ما يفعله (ستاب) ..

هنا فقط أخرج (ستاب) سيفًا وصنع فتحة فى جسد الحوت الميت ، خلف الزعنفة الجانبية .. وراح يوسع الفتحة من فوق الأضلع .. راح يواصل عمله وقد بدأت خيبة الأمل تبدو عليه خاصة والرائحة لا تطاق ..

وفجأة تصاعدت رائحة طيبة خافتة كادت تقضى على رائحة العفن ..

ـ «ظفرت به ! ظفرت به ! »

ومد ذراعيه فى الفتحة ليخرج شىء أقرب إلى الجبن الفرنسى الدسم ذى الثقوب (روكفور) .. شىء عطرى الرائحة زيتى للغاية .. لونه طيف بين الأزرق والأصفر .. إنه العنبر .. يساوى جنيهًا ذهبيًا لكل أوقية لدى أى صيدلى .. لقد حصل (ستاب) على الكثير ولربما وجد أكثر لولا صرخات (أهاب) نافذ الصبر ، يأمره بالعودة وإلا تركتهم السفينة ورحلت ..

* * *

الفصـل الحادى والعشرون

رجل وذراع :

جلسنا على سطح السفينة وسط تلك المادة الثمينة التى جمعها لنا (ستاب) .. كانت متجمدة فى كتل وكان علينا أن نعتصرها لتعود إلى الحالة السائلة .. أية نعومة ! أية رائحة طيبة ! هناك إذ جلست على السطح خاليًا من الهموم أنظر إلى السماء الزرقاء ، وقد امتلأت خياشيمى بتلك الرائحة التى لا تقل عذوبة عن أزهار البنفسج ، بدأت أفهم ما قيل عن أن العنبر يهدئ الأعصاب ..

اضغط .. اضغط .. وأفكر .. لقد صارت رحلتنا وقسمنا الخاص بالحوت الأبيض شيئًا غابرًا قصيًا .. لم يعد شىء يهمنى إلا هذه المادة الساحرة .. وبدأ نوع من الخبل يتسرب إلى نفسى بعد ما أمضيت النهار كله فى هذا العمل .. حتى إننى رحت اضغط أيدى رفاقى وأنظر فى عيونهم .. يا إخوتى فى البشرية ! لماذا نضيع وقتنا فى الخلافات والضغائن والحسد ؟ فلنعتصر المزيد من حبيبات العنبر هذه .. فلنعتصر الكون نفسه .. لنضع الحياة نفسها فى وعاء من العنبر ..

* * *

صاح (أهاب) محييًا قاربًا يحمل علمًا بريطانيًا ..

ـ « أيتها السفينة .. هل رأيتم الحوت الأبيض ؟ »

كان (أهاب) يضع يديه على فمه كأنها البوق ، وقد أظهر قدمه العاجية بوضوح للقبطان الغريب الذى جاء فى قارب إلى سفينتنا .. وكان رجلاً لوحت الشمس بشرته ، طيب الخصال ، حسن المظهر .. وإن كان أحد كمى سترته خاليًا يتدلى من خلفه .

كشف الرجل كمه عن قطعة من عظام الحوت البيضاء تنتهى بقطعة خشبية كالمطرقة ، وقال :

ـ « هل رأيت هذا ؟ »

صاح (أهاب) فى اندفاع :

ـ « رجل فى قارب .. استعدوا للإنزال ! »

وفى أقل من دقيقة كان قد ركب قاربًا مع بعض الرجال ، وسرعان ما تقدموا فى البحر نحو الغريب ..

هنا تذكر (أهاب) أنه منذ فقد رجله لم يصعد قط إلى أية سفينة أخرى غير سفينته .. وكان هذا يتم ببراعة شديدة من رجال (بيكود) .. إن أى صائد حيتان يعرف جيدًا كيف

يتسلق من قاربه إلى جانب سفينة .. لكن (أهاب) سيجد الأمر صعبًا الآن مع أمواج ترتفع إلى عنان السماء ثم تهبط إلى أعماق الأرض ، وبرجل واحدة شعر (أهاب) بأنه رجل بر أخرق يفكر فى الطريقة التى يصعد بها إلى هذه السفينة .

قام ضابطان على السفينة الغريبة بإنزال سلم من الحبال ، ولم يخطر لهما أن رجلاً بساق واحدة لن يستطيع تسلقه .. هنا فهم القبطان المشكلة ، ومن حسن الحظ أن السفينة كانت تعلق حوتًا من يوم أو اثنين ، لذا أنزلوا الخطاف الذى صار الآن نظيفًا جافًا .. فهم (أهاب) الأمر فأدخل فخذه السليمة فى تجويف الخطاف ثم تشبث بيديه فى الحبل الذى يتدلى منه الخطاف .. فرفعوه برفق إلى ظهر السفينة .

رحب به القبطان بذراعه العاجية ، ولمس القدم العاجية بذراعه كأنما هما سيفان يتقاطعان ، وقال :

ـ « آى آى .. لنصافح العظام معًا .. ذراع لاتتراجع وقدم لاتجرى .. منذ متى رأيت الحوت الأبيض ؟ رأيته على خط الأفق هنا منذ موسم واحد .. »

ـ « وسلبك هذه الذراع .. أليس كذلك ؟ »

ـ « بلى .. كانت أول مرة أجوب فيها هذه المياه .. لم أكن أعرف شيئًا عن الحوت الأبيض .. وجدنا هنا أربعة حيتان فأنزلنا قاربًا .. اصطدنا حوتًا لكنه كان جواد سيرك حقيقيًا .. راح يدور بنا ويدور .. وفجأة من أعماق البحر برز حوت أبيض عملاق امتلأ بالتجاعيد والجروح ! » .

شهق (أهاب) واحتبست أنفاسه :

ـ « إنه هو ! إنه هو ! والحربون يخرج جوار زعنفته .. هذا الحربون لى ! »

ـ « اهدأ قليلاً .. لقد أراد أن يقطع الحبل الذى نمسك به .. »

ـ « نعم .. نعم .. هذه عادته ! أعرف هذا .. كى يحرر رفيقه .. »

ـ « كان هذا أنبل وأضخم حوت عرفته فى حياتى ياقبطان .. وقد قذفته بالحربون .. لكن .. رباه .. لقد ارتفع الذيل العملاق وهوى على قاربى فشطره نصفين .. مجرد شظايا .. لم أدر ما أفعل فتمسكت بطرف الحربون البارز من جسده .. هنا غاص الوحش باندفاعة واحدة وشعرت بالحربون الثانى يمزق ذراعى حتى المعصم .. ولكن .. د (بنجر) جراح السفينة يمكن أن يستكمل القصة .. »

كان الدكتور واقفًا يصغى للمحادثة فى أدب ، فلما أشار له القبطان انحنى وأكمل القصة :

ـ «كان جرحًا شنيعًا .. وقد حاولت ما بوسعى .. »

قال القبطان :

ـ «حاول الكثير وشربنا الكثير من (الروم) ، حتى إنه لم يكن يرى أمامه حين يفارقنى فى الثالثة صباحًا .. لكنه قاس حقًا .. يا لك من كلب ! إننى أفضل الموت بيديك على الحياة بيدى وغد آخر .. »

ـ «بصرف النظر عن الملحوظة ، فإننى حاولت كثيرًا إنقاذ الجرح .. لكنه تفاقم وصار لونه أسود .. هكذا قمت بالبتر لكن هذه الذراع العاجية .. لا .. لم أصنعها فهى تخالف مبادئ الطب .. نجار السفينة هو من صنعها لا أنا .. وهذه المطرقة صنعها كى يهشم بها رأس أحدهم .. »

قال القبطان :

ـ «أيها الخنزير .. هل يوجد (بنجر) آخر مثلك فى المهنة ؟ يوم تموت لا يجب دفنك بل يجب أن يتم تخليلك .. فأنت نادر الوجود .. »

سألهما (أهاب) نافذ الصبر :

ـ «وماذا بعد هذا ؟ ألم تلق الحوت ثانية ؟ » .

ـ «مرتين .. لكنى لم أحاول مواجهته .. أليست ذراع واحدة كافية ؟ ماذا أفعل لو فقدت هذه الذراع ؟ لا حيتان بيضاء من جديد .. »

صاح (أهاب) :

ـ «وإلى أين كان الحوت يتجه ؟ »

ـ «إلى الشرق .. ولكن هل قبطانكم مجنون ؟ »

وجه هذا السؤال لـ (فداء الله) ، لكن هذا الأخير رفع إصبعًا لشفته بينما كان (أهاب) يتجه إلى القارب ..

وبعد دقائق كان القارب يبتعد يقوده الفليبينيون ..

أرسل القبطان البريطانى تحية ، لكن (أهاب) لم يشعر بها لأنه أعطى ظهره للسفينة البريطانية ووجهه شطر (بيكود) ..

* * *

لو أنك جلست مستريحًا بين أقمار (المشترى) وتأملت الإنسان .. لبدا لك أعجوبة فى عظمته وبؤسه .. لكن لو أخذت البشرية كلها قطعة واحدة ، لبدت لك مجموعة من النسخ المتشابهة التى لاضرورة لها .. وبرغم أنه متواضع قليل الشأن فإن نجار سفينة (بيكود) لم يكن له شبيه على الإطلاق ..

كان ككل نجارى السفن يمارس عدة أعمال فرعية لمهنته الأصلية .. كان متمرسًا فى آلاف المهمات الميكانيكية التى لابد أن تتطلبها سفينة بهذا الحجم فى رحلة تقرب من أربعة أعوام .. يصلح مجدافًا معوجًا .. يصنع من عظام الحوت قفصًا لطير غريب يريد البحارة الاحتفاظ به .. يبرد مسمارًا سميكًا ليجعله أرفع ، بحيث يصلح لغرض معين .. يصنع دهانًا ملطفًا لمعصم ملتو لأحد المجدفين .. هناك بحار يرغب فى أن يلبس قرطًا من عظام القرش .. هناك بحار يعانى من ألم فى ضرسه ويريد اقتلاعه .. وهو يتعامل مع كل هذه الأشياء بلا مبالاة غريبة ..

كان رجلاً يدويًا بالكامل ، فلابد أن مخه ـ لو كان عنده واحد ـ قد سال إلى أصابعه .. كان يشبه تلك المدى التى تصلح لعدة أغراض معًا فقط عليك أن تختار ما تريده منها ..

* * *

الفصل الثانى والعشرون

قدم (أهاب) :

لم تكن الطريقة التى غادر بها (أهاب) تلك السفينة البريطانية تنم عن غلظة من جانبه .. لقد تلقت ساقه العاجية صدمة شديدة كادت تهشمها حين نزل إلى قاربه ، ثم التوت مرة أخرى بعنف حتى إنه لم يعد يثق بها برغم أن منظرها لم يتبدل بالنسبة للناظرين .

وبرغم ماكان يبدو عليه من استهتار وعنف فإن (أهاب) كان يولى هذه الساق أهمية عظمى .. قبل إبحار السفينة (بيكود) وجدوه فاقد الرشد وقد تهشمت هذه الساق واخترقت أسفل بطنه بشكل مروع ، حتى إن الأمر اقتضى جهدًا جهيدًا كى يبرأ هذا الجرح الشنيع .. لكنه لم يندهش وقدر أن المصائب الأصلية لابد أن تنجب مصائب أخرى .. وأن الأفراح قد لاتتبعها ذرية من صلبها ، بينما الآلام لابد أن تنجب سلالة تتبعها إلى الأبدية ، وما وراء القبر ..

لكن (أهاب) حرص على أن يزود نفسه بساق جديدة ، وطلب من البحارة أن ينتقوا له أفضل عظام حوت العنبر ، كى يصنع منها نجار السفينة ساقًا له .

فى اليوم التالى وكما هى العادة ، جرى غسل سطح السفينة بماء البحر ، لكن كمية الزيت كانت أكثر من اللازم وأثار هذا قلق البحارة ، لأنه يعنى تسربًا فى براميل الزيت ، وقد اجتمع (أهاب) بـ (ستارباك) لمناقشة هذا الموضوع ..

كانت (بيكود) تدنو من (فرموزا) وجزر (باشى) التى يقع بينها أحد المخارج الاستوائية من مياه الصين إلى المحيط الهادى .. لهذا كان (أهاب) يجلس أمام خارطة للأرخبيل ، وخارطة أخرى للسواحل الشرقية لليابان .. (نيفون) و (ماتسماى) و (سيكوكى) .. وكان العجوز المذهل يمسك بمطواة ، وقد قطب حاجبيه وراح يدرس المسار فى اهتمام ، بينما ظهره للباب .. سمع خطوات من خلفه فقال من دون أن يلتفت :

ـ « إلى السطح .. اذهب ! »

ـ « جئت أبلغك يا سيدى بوجود تسرب فى الزيت .. يجب أن نتوقف لإصلاحه .. »

ـ « ونحن على سواحل اليابان ؟ نضيع أسبوعًا من أجل براميل مثقوبة ؟ »

ـ « لا حيلة لنا سيدى .. وإلا فقدنا فى يوم واحد من الزيت ما احتجنا لعام كى نجمعه .. »

ـ « دعه يتسرب ! أرحل ! أنا نفسى ملىء بالثقوب ! ثقوب فى ثقوب .. لكننى لا أتوقف كى أصلح ثقوبى الخاصة .. وكيف آمل فى أن أصلحها لو وجدتها ؟ فى هذه الحياة الملأى بالعواصف لن أتوقف لترميم براميل زيت ! »

ـ « وماذا سيقول ملاك السفينة يا سيدى ؟ »

ـ « ملاك .. ملاك ! دعهم يقفوا على الشاطئ ويولولوا كلما هبت عاصفة .. أنت تهتم بالملاك كأنهم ضميرى .. دعنى أقل لك إن ضميرى هنا على هذه السفينة .. »

ـ « لكن سيدى .. هل تسمح لى بأن أقدم رأيى ؟ إننى .. »

هنا مد (أهاب) يده إلى غدارة موضوعة جواره ، وصوبها إلى رأس (ستارباك) وقال :

ـ « هناك إله واحد فى الكون .. أما على ظهر السفينة فليس هناك إلا سيد واحد يأمر فيطاع هو القبطان .. »

فلو أنك رأيت عينى الضابط لحسبت أنه تلقى الطلقة بالفعل ، لكنه استعاد صوابه .. واتجه لباب القمرة وقال :

ـ « أنت أخجلتنى ولم تهنى يا قبطان .. لن أنصحك بأن تأخذ الحذر منى لأن هذا سيضحكك .. لكنى أنصحك بأن تأخذ الحذر من (أهاب) .. حاذر من نفسك أيها الشيخ .. »

بعد رحيله فكر (أهاب) قليلاً وغمغم :

ـ «لكنك رجل شجاع بارع فعلاً .. تحذر (أهاب) من (أهاب) .. هذا الكلام له معنى ما .. »

ثم أصدر أوامره برفع الخطاطيف الصغرى ، توطئة لفحص موضع تسرب الزيت ..

لا نعرف سبب هذا .. ربما لأنه كان يحتفظ ببعض الضمير المهنى داخله ، وربما لأنه لم يرد أن يدب خلاف بينه وأكبر ضابط على سفينته ..

* * *

الفصل الثالث والعشرون

تابوت كويكونج :

لم يجد الرجال أى ثقب فى براميل الزيت حديثة العهد ، لذا صار بحثهم أعمق ، ونزلوا إلى قاع السفينة يطردون الفئران إلى ضوء الشمس .. وراحوا يخرجون ما فى خزين السفينة من خبز ولحم إلى السطح ليجدوا لأنفسهم طريقًا .

كان هذا هو الوقت الذى أصيب فيه صديقى (كويكونج) بالحمى التى كادت تقوده إلى نهايته .. يجب أن أذكركم هنا أن مهنة الحيتان ليست بالمهنة التى تكسب فيها عيشك من دون عمل ، وكلما ارتقيت فى المهنة زادت مسئولياتك ، ما لم تكن أنت القبطان ذاته .. كان (كويكونج) رامى حربون عليه تحمل كل مخاطر الحوت الغاضب ، وبالإضافة لهذا كان عليه أن ينزل إلى أعمق الظلمات ليتحقق من حال الخزين .. كنت تستطيع أن تراه هناك فى قاع السفينة يزحف بجسده الموشوم وسط القاذورات ، كأنه سحلية مبرقشة فى قاع بئر .. ومع كل العرق الذى خرج من المسكين يبدو أنه أصيب ببرد شديد .. وفى النهاية رقد فى فراشه دانيًا جدًا من بوابة الموت .

هزل جسده فلم يبق إلا الجلد الموشوم ، لكنك كنت ترى أن عينيه تزدادان اتساعًا وفيهما بريق غريب .. مثل الدوائر فى الماء التى كلما اقتربت من نهايتها ازدادت اتساعًا ، كانت عيناه تتسعان كأنما هما باب الأبدية .. ظلال غريبة على وجهه بينما البحر يهزّ فراشه برفق وهو يتجه إلى مثواه الأخير .

وإذ شعر بدنو نهايته طلب مطلبًا غريبًا .. كان قد سمع أن صيادى الحيتان فى (نانتوكت) يدفنون فى قوارب صيد ، وذكره هذا بقومه الذين كانوا يدفنون موتاهم فى قوارب سوداء معتقدين أنهم سيرحلون فيها إلى جزر النجوم .. وقد تمنى ألا يدفن فى فراش نومه كما هى العادة .. وقد طلب البحارة من نجار السفينة أن ينفذ رغبة المحتضر .

اتجه النجار إلى مرقد (كويكونج) وأخذ قياساته بعناية ، ثم عاد لمنضدة العمل وبدأ يقطع الخشب ..

سمع (كويكونج) أن الشىء قد تم .. فطلب فى حسم أن يأتوا به إليه .. إن المحتضرين يكونون طغاة أحيانًا ، ولأننا نعرف أنهم لن يضايقونا بعد الآن فإننا نطيعهم بلامناقشة ..

طلب (كويكونج) وضع الحربون داخل التابوت غريب

الشكل ، ثم وضعوا بعض التراب عند موضع قدميه ووسادة تحت الرأس .. وأصر على أن يحضروا له الصنم (يوجو) ثم قرر أن يرقد فى التابوت ليجربه وقد وضع الصنم بين ذراعيه .

فى الفترة التالية بدأ (كويكونج) يتحسن حتى إن صندوق النجار لم يعد ذا نفع ، وكلما أبدى أحدهم دهشته لهذا التحسن قال (كويكونج) إنه أجل مشروع الموت بعض الوقت ، لأنه تذكر أن عليه أشياء مهمة لايمكن أن ينجزها إلا على اليابسة .. كان يؤمن بأنه إذا قرر المرء ألا يموت فلاتوجد قوة تستطيع قتله ما عدا الحيتان بالطبع ..

هنا فارق كبير بين الرجل المتحضر والمتوحش .. الأول يحتاج إلى أيام من النقاهة بينما الثانى يحتاج إلى نصف يوم .. بدأ (كويكونج) يأكل بشراهة غير مسبوقة ، ثم صار يخرج إلى السطح .. وخلال أيام حمل الحربون من جديد ونزل إلى القارب ..

أما عن تابوته فقد صنع منه مخزنًا لاحتياجاته .. ونحت عليه أشكالاً غريبة استوحاها من وشم جسده .. هذا الوشم رسمه أحد عرافى جزيرته يحكى به قصة خلق السموات والأرض .. وهو كتاب قيم لكن المشكلة أنه لا يستطيع قراءته برغم أن قلبه يخفق جواره .. ولسوف يرحل معه إلى القبر ..

* * *

كنا نعبر البحار اليابانية ونلقى سفن الصيد .. المحيط هادئ تمامًا يغريك بالاستسلام والتأمل .. الجلد الناعم الجميل يغريك بأن تنسى النمر القابع تحته .. ويشعر المرء بشعور نهائى أرضى ملىء بالثقة فى البحر .. كل هذا يلتقى فى روحك حتى تشعر بأن الحقيقة والوهم يختلطان ليصنعا شيئا واحدًا ..

يقف (ستارباك) ناظرًا إلى البحر من جانب قاربه ، ويقول :

- « الروعة التى لا يمكن استيعابها ! كما يراها العاشق فى عينى عروسه .. لاتحدثينى عن أسنانك يا أسماك القرش .. فليطردن الإيمان الحقيقة ، وليطردن الخيال الذكريات .. إننى أنظر للماء فأؤمن .. »

لم يطل بنا الوقت حتى قابلنا السفينة (الأعزب) القادمة من (نانتكونت) .. واستطعنا أن نرى فك الحوت المعلق على صاريتها والأعلام التى تزدان بها ..

كانت هذه السفينة فى فترة المرح التى تعقب انتهاء الصيد ، وكانت تقوم بجولة أخيرة قبل أن تتجه أشرعتها إلى الوطن .. كما عرفنا فيما بعد فإن حظ هذه السفينة كان مذهلاً فى مياه لم تظفر فيها سفن أخرى بسمكة واحدة .. وقد تخلت هذه السفينة عن أطنان من مخزونها من اللحم والخبز لسفن أخرى ، كى توفر مكانًا لحملها الثمين ..

وقد اندهشنا لما وجدنا أن الطاهى قد ملأ موقده بدهن الحوت ورماة الحربون ملئوا حرابهم بهذه المادة .. كل شىء على السفينة اختزنوا فيه المادة الثمينة ما عدا جيبى بنطال القبطان ، فقد ادخرهما ليضع يديه فيهما معبرًا عن رضته العظيم ، من مقدمة السفينة تسمع صوت الطبول ، وترى الفتيات بلون الزيتون يرقصن ، وهن اللاتى جئن من جزر (بولينيزيا) ليرافقن البحارة .

بالمثل وقف (أهاب) على سطح سفينتنا كئيبًا مكفهرًا ، وتوازت السفينتان فكنت تسمع التهليل من واحدة منهما لأجل الأشياء التى مرت ، والتوجس من الأخرى على الأشياء القادمة ، وصاح بحار مرح ملوحًا بزجاجة :

- « تعالوا لسفينتنا .. »

فكانت إجابة (أهاب) :

- « هل رأيتم الحوت الأبيض ؟ »

- « لا .. سمعنا عنه ولم نصدق .. تعالوا إلى سفينتنا .. »

- « ليس بالقدر الذى يتذكره .. فقدنا رجلين من الجزر ، تعالوا لنا ولسوف تنزع السواد من حاجبيك .. »

صاح (أهاب) :

ـ « أنتم عائدون إلى الوطن بسفينة مليئة .. وأنا أبتعد عن الوطن بسفينة خاوية .. فامضوا فى طريقكم واتركونا فى طريقنا .. »

وهكذا مضت سفينة مع الريح ومضت سفينة عكس الريح ، ووقف رجال (بيكود) ينظرون بحسرة وحسد إلى السفينة (الأعزب) .. وعلى حاجز السفينة مد (أهاب) يده وإلى جيبه فأخرج قارورة مليئة بالرمل .. تخلص منها ووقف يرمقها .. إن هذه القارورة كانت تحوى رمال (نانتيكوت) ..

* * *

الفصل الرابع والعشرون

المسدس :

على سطح السفينة وقف (أهاب) فى مكانه المعتاد يحسب خط الطول الذى تتحرك فيه (بيكود) الآن .. ثم رفع وجهه نحو قرص الشمس وهتف :

ـ « أيها القبطان الشامخ القدير .. أنت تخبريننى أين أنا بكل دقة ، لكنك لا تستطيعين إخبارى أين سأكون .. لم تخبريننى أين (موبى ديك) .. يا لك من لعبة حمقاء يتسلى بها القباطنة ! لكنك لا تعرفين إلا البقعة التى أنت فيها .. لا تعرفين أين ستكون ذرة ملح أو حبة رمل غدًا .. »

* * *

مساء ذلك اليوم واجهت (بيكود) إعصارًا مزق أشرعتها ، فحين جاء الظلام زأرت الأرض والسماء وشطرهما البرق ..

وكان (ستارباك) واقفًا ينظر مع كل التماعة برق ، ليرى أى خراب جديد حل بمعدات السفينة .. على حين راح (ستاب) يأمر الرجال بإحكام ربط كل شىء على ظهرها .. لقد ارتفع البحر عاليًا وهوى على السفينة ثم تركها يتسرب الماء منها كالغربال .. وبدأت الأشرعة تحترق .

صاح (ستارباك) :

ـ « هذه الريح تأتى من الشرق .. من حيث يرغب القبطان أن يقودنا للظفر بـ (موبى ديك) .. لكن هذه الريح ذاتها يمكن أن تحملنا لأوطاننا لو أعطيناها ظهرنا .. »

وهتف فى (أهاب) بصوت يحاول أن يخرق الرعد :

ـ « إن السماء ضدك أيها العجوز .. فلتكف ! إنها رحلة شريرة بدأت بالشر واستمرت بالشر .. دعنا نعد لوطننا ما دام ذلك فى وسعنا ، ولنبدأ رحلة أفضل من هذه .. »

فيصيح (أهاب) وهو ينظر إلى ألسنة البرق :

ـ « أيتها القوة العمياء ! أنا قادر مثلك .. أنت تصيبيننى بالعمى وأنا أتحسس طريقى .. أنت تحرقيننى وأنا أتقحم .. »

سمع الطاقم ما يقال فى رعب ، فصارت هواجس الضابط هواجسهم وتعالت صرخة تمرد خافتة .. هنا التقط (أهاب) الحربون الخاص الذى أعده لدى حداد السفينة ولوح به كشعلة وسط صفوفهم .. وأقسم أن يمزق أول رجل يتخلى عن الحبال .. وصاح بينما هم يتقهقرون :

ـ « إن قسمكم بأن تصطادوا الحوت الأبيض يقيدكم كما يقيدنى .. إننى أقسمت بقلبى وروحى ورئتى وحياتى .. »

فى ذروة العاصفة راحت الدفة تتلوى بعنف ، حتى إن الرجل المسئول عنها طار أكثر من مرة ليصطدم بالسطح .. فى هذا النوع من العواصف يمكن أن ترى إبرة البوصلة تدور فى جنون ذهابًا وإيابًا .

هدأت العاصفة بعد منتصف الليل بثلاث ساعات ، حتى استطاع البحارة تركيب ثلاثة أشرعة أخرى يمكن للسفينة أن تتحرك بها بشىء من الدقة ، وأمكن المسئول عن الدفة أن يحركها .

نزل (ستارباك) إلى قمرة (أهاب) ليخبره بما استجد من تطورات ، وكان الرجل قد أوصى ضباطه بإبلاغه بالمستجدات فى أى وقت من الأربع والعشرين ساعة .. كان المصباح المعلق يتأرجح مرسلاً ظلالاً كئيبة على الغرفة وعلى حاجبى الرجل النائم .. الغدارة المحشوة تلتمع بوضوح إذ استندت إلى الجدار .. لدى رؤيتها خطرت فكرة شريرة لـ (ستارباك) ، لكن الرجل كان شريفًا ذابت الفكرة بسرعة إلى حد أنه لم يتبين ما هى ..

ـ « لماذا لا تأخذ المسدس ؟ إنه محشو .. عليه آثار بارود .. هو صوبه من قبل نحو رأسك .. لكن لا .. فلتخبره بالسبب الذى جئت من أجله .. جئت تخبره أن الريح صارت معتدلة ..

لكن معتدلة لمن ؟ معتدلة لـ (موبى ديك) فقط .. ألم يحاول الرجل قتلك بذات السلاح ؟ ألم يحاول قتل كل الطاقم حين مضى فى هذه العواصف يتحسس طريقه ؟ من أجل الانتقام الشخصى يجر طاقمًا كاملاً إلى النهاية معه .. طاعة عمياء لأوامر عمياء .. لكن هل من طريقة لمنعه ؟ طريقة قانونية ؟ ربما نسجنه ؟ لكن لو قيدناه وكبلناه بالأصفاد لكان المنظر مروعًا .. سيكون أكثر خطرًا من نمر حبيس ولن يتحمل أحد غضبه وعواءه .. ولكن لو قتلته .. فقط لمسة للزناد .. ومحيط كامل يفصلنى عن القوانين .. ويعيش (ستارباك) ليحتضن زوجته وابنه من جديد .. آه يا (مارى) (مارى) .. ولدى .. ولدى !! »

هنا قال الرجل النائم :

ـ « (موبى ديك) ! قد ظفرت بك !! »

هنا تخلى (ستارباك) عن الفكرة .. غادر القمرة واتجه للسطح وأمر (ستاب) أن ينزل بدلاً منه ليبلغه بالريح المواتية ..

* * *

فى الصباح المبكر هرع مراقب البوصلة إلى القبطان ليخبره فى رعب أن السفينة تتجه للشرق .. صاح (أهاب) مغضبًا :

ـ « هل تهذى ؟ نحن فى الصباح الباكر والشمس من ورائنا وبرغم هذا تزعم أننا نتجه للشرق ؟ »

لكن البوصلة أظهرت بوضوح أن السفينة تتجه للشرق ، بينما الواقع يقول إنها تتجه للغرب ، وقد ضحك (أهاب) كثيرًا حين فهم ما هنالك :

ـ « لقد تأثرت البوصلة بشحنة الإعصار .. لقد رأيت هذا من قبل .. »

قال (ستارباك) :

ـ « كما تقول يا سيدى وإن كنت لم أر شيئًا كهذا من قبل .. »

فى العواصف العاتية تحدث أشياء كهذه ، حتى إن المعدن الممغنط لا يعود أكثر قيمة من إبرة الحياكة التى تمسك بها امرأة عجوز .. وحين تصيب هذه الظاهرة بوصلة واحدة فإنها تصيب كل بوصلات السفينة .. لكن (أهاب) على كل حال درس اتجاه الشمس واستراح إلى أن البوصلة معكوسة تمامًا ، وهكذا مازال بوسعه الاستفادة منها .. وأصدر تعليماته بمواصلة الرحلة ، فلم يجرؤ أحد على الاعتراض لأن خوفهم من (أهاب) كان أعظم من

خوفهم من تصاريف القدر .. وإن كان (أهاب) نفسه يعرف أن الإبحار ببوصلة مقلوبة أمر لابد أن يثير الهلع عند البحارة المؤمنين بالخرافات كثيرى التطير .

لهذا قام بإعداد قضيب من حديد طرقه بعناية حتى اكتسب مغناطيسية خاصة به ، ثم علقه من حبل بحيث صار يعمل كبوصلة ، وعرض النتيجة على البحارة المذهولين وهو يوشك على أن يطير تيهًا ..

وواصلت (بيكود) مسيرتها ببوصلتها الغريبة متجهة نحو خط الاستواء ..

عند الفجر فى ظلمات المحيط الكثيفة ، دوت صرخة عالية كأنما هى كل أرواح المعذبين فى التاريخ .. وقد أصيب البحارة بالذعر لدى سماعها وأكد البعض أنها صرخة عرائس البحر ، بينما أكد أقدم البحارة أنها صرخة الرجال الذين غرقوا حديثًا فى هذه الأصقاع .. فلما صحا (أهاب) من نومه أخبروه بهذه القصة ، فضحك طويلاً .. وقال إن الجزر البعيدة هى مأوى لكلاب البحر التى فقدت أطفالها ، لذا تستقر هناك وتطلق صرخاتها العالية الشبيهة بصراخ الإنسان .. لكن هذا التفسير لم يسعد البحارة ، لأنهم جميعًا يحملون مشاعر متطيرة نحو كلاب البحر بنظراتها شبه البشرية ..

وعند الفجر التالى سقط رجل فى الماء .. لا يعرف أحد السبب فلربما نهض من نومه وهو لم يفق بعد .. فقط سمع البحارة الصوت ورأوا الفقاقيع فى المحيط حيث سقط .. رموا له بقارب النجاة الصغير ، لكن الرجل توارى تمامًا فى المحيط .. هكذا ربطوا بين الصرخات وفقد هذا الرجل .. وكان عليهم أن يجدوا قارب نجاة آخر .. هكذا فكر الجميع فى تابوت (كويكونج) ليكون قارب النجاة الجديد ..

* * *

الفصل الخامس والعشرون

بيكود تلقى راشيل :

قابلت (بيكود) السفينة (راشيل) فى عرض البحر ، وكان بحارتها يقفون جميعًا على ظهرها .. ثمة جو من التوجس العام والتوتر مما أعطانا انطباعًا بأن (راشيل) تحمل أخبارًا سيئة .. وصاح (أهاب) كعادته :

ـ « ألم تروا الحوت الأبيض ؟ »

قال القبطان فى قاربه المقترب منا :

ـ « بلى .. أمس ! »

حبس (أهاب) صوت الفرحة فى أعماقه ، وهنا كان القارب قد التصق بـ (بيكود) وتم تثبيته بالسلاسل ، ثم تسلق القبطان إلى ظهر سفينتنا .. وتعرف (أهاب) فى القبطان على رجل يعرفه من (نانتوكت) لكنهما لم يتبادلا التحية .. فقط سأله فى لهفة :

ـ « رأيتموه .. لم تقتلوه ؟ لم تقتلوه ؟ كيف كان ؟ »

يبدو أن القوارب كانت تطارد مجموعة من الحيتان عند

عصر أمس .. وقد ابتعدت أربعة أميال عن سفينتنا ، عندما رفع حوت أبيض عملاق رأسه من المياه الزرقاء .. ويبدو أن القارب الأول تمكن من تثبيته بحربون .. توارى القارب الأول من ثم تم إنزال قارب احتياطى رابع من السفينة .. وكان هو الأسرع ، وقد راح يقتفى أثر الحوت والقارب الذى أوقع به .. لم ير إلا بقعة من فقاقيع الماء ثم لا شىء .. وقد قدر البحارة أن الحوت هرب وهو يجر مطارديه كما يحدث دائمًا ..

جاء المساء والتقطت السفينة قواربها التى كانت تبحث عن القارب الأول .. ثم أشعلت نارًا عالية وكلفت البحارة بالتناوب على مراقبة البحر .. وبدأت ترتاد المكان الذى اختفى فيه قاربها المفقود .. لكن النهار طلع عليها دون أن تجد أدنى أثر للقارب المفقود .. وكان مطلب القبطان هو أن تعاونه (بيكود) فى البحث عن القارب المفقود عن طريق مسح خطوط متوازية بالتبادل مع سفينته ..

همس (ستارباك) لـ (ستاب) :

ـ « أراهنك على شىء .. أعتقد أن أحد الموجودين فى القارب المفقود يلبس معطف القبطان أو ساعته أو أى شىء ثمين يخصه .. والقبطان يجن كى يسترده .. إذ من يتصور أن تضيع سفينتنا صيد وقتهما فى البحث عن قارب مفقود ، وذلك فى ذروة موسم الصيد ؟ »

كان القبطان شاحبًا ، وراح يتوسل لـ (أهاب) :

- « أتوسل إليك .. أعرف أنك ستقبل .. فقط ثمانية وأربعين ساعة وسأدفع لك بسخاء .. »

قال (ستارباك) :

- « الأمر أهم من هذا .. لابد أن ابنه فى هذا القارب .. »

بالفعل كان ابن القبطان فى القارب المفقود .. لم يقل هذا إلا بعد إلحاح من (أهاب) .. وكان الفتى فى الثانية عشرة من عمره ، أحسن أبوه تربيته ، لكنه بكل حزم وخشونة رجل من (نانتكوت) صمم أن يعلمه مبكرًا كل أهوال مهنة صيد الحيتان فى قارب ..

لكن (أهاب) كان يصغى دون أدنى تعبير على وجهه كأنه تمثال .. وقال له القبطان متوسلاً :

- « لن أمضى قبل أن تقبل .. افعل لى ما كنت تتوقع أن أفعله لك فى ظرف مماثل .. أنا أعرف أن لك ابنًا .. هو طفل آمن فى داره لكن .. »

- « كفى .. »

قالها (أهاب) :

- « قبطان (جاردينر) .. أنا لن أفعل ما تطلبه .. فليسامحنى

الله لكنى أفقد وقتًا ثمينًا فى كل لحظة .. مستر (ستاربك) .. بعد ثلاث دقائق أنذر كل الغرباء على سفينتنا ثم تحرك على الفور .. »

وانصرف بوجه جامد إلى قمرته ، تاركًا (جاردينر) مذهولاً لدقيقة .. ثم أسرع إلى جانب السفينة لينزل إلى قاربه ..

وبعد قليل افترقت السفينتان .. الآن يمكنك أن تعرف سر الصراخ الليلى .. لقد كانت هى السفينة (راشيل) تبكى أطفالها الذين لم يعودوا كذلك ..

* * *

من هذه اللحظة تغير (أهاب) كثيرًا .. نظرة مريعة فى عينيه أثارت هلع مرافقه الدائم (فداء الله) .. إن المطاردة تدنو من نهايتها .. وهذه السفينة قابلت أمس معتبة .. ممزقة .. إنها البقعة التى ينتهى فيها الصراع .. ومن هذه اللحظة لم يعد البحارة يصعدون لسطح السفينة إلا ليروا (أهاب) يذرع المكان بساقه العاجية جيئة وذهابًا .. كل ما يريده من القمرة يأتيه حيث هو .. يأكل فى الهواء الطلق ..

مرت ثلاثة أيام من دون أخبار بعد لقاء (راشيل) الثكلى .. لذا بدأ (أهاب) يفقد ثقته فى بحارته وتوقع أنهم يخدعونه .. بدأ

يشك فى الجميع ما عدا رماة الحربون الوثنيين .. وقرر أن يرى الحوت بنفسه وأن يكون هو الفائز بقطعة العملة ..

عندما قابلنا السفينة (السرور) بدا لنا الاسم مخالفًا للواقع إلى حد مروع .. لقد كان جانب كبير من السفينة محطمًا وقد تساقطت ألواح كثيرة ، وبدا هيكل لما كان قارب صيد من قبل ..

ـ « هل رأيتم الحوت الأبيض ؟ »

ـ « انظر بنفسك .. »

قالها القبطان مقعر الخدين وهو يشير إلى الحطام ..

ـ « هل قتلوه ؟ »

ـ «لم يصنع بعد الحربون الذى يستطيع هذا .. »

لوح (أهاب) بالحربون الذى صنعه خصيصًا وصاح :

ـ «لم يصنع بعد ! راقبوا يارجال (نانتيكوت) هذا الحربون الذى صنعته من الدم والعاصفة .. لسوف أغرسه خلف زعنفته حيث يشعر الحوت الملعون بالحياة أكثر من أى موضع آخر .. »

قال القبطان الآخر :

ـ « أنا أصلى من أجلك أيها العجوز .. لقد دفنت اليوم خمسة رجال كانوا أحياء أمس .. وكلهم دفنوا قبل أن يموتوا .. إن سفينتك الآن تسبح فوق قبرهم .. فقط هناك رجل واحد ندفنه الآن .. هلموا باللوح واستعدوا لرمى الجسد فى البحر ! »

صاح (أهاب) :

ـ « ابتعدوا ! »

وأسرعت (بيكود) لتبتعد لكنها لم تكن بالسرعة الكافية .. لقد تدحرج الجسد إلى الماء ، فتطاير الرذاذ ليغرق جانب (بيكود) بذلك العماد الرهيب ..

* * *

الفصل السادس والعشرون

المطاردة :

عند المساء خرج (أهاب) إلى السطح .. تشمم الجو قليلاً ثم أعلن أنه يشم رائحة حوت بهذا الاتجاه .. لم يندهش بحار لهذا لأن الأنوف الخبيرة تميز رائحة حوت العنبر على مسافة طويلة ، وهكذا تم تغيير اتجاه السفينة ..

عند الفجر تبين للجميع أن هناك جسم طولى يشق المياه من بعيد ..

جرى (داجو) ليوقظ الرجال النائمين بصفعات عنيفة ، حتى إنهم خرجوا من دون أن يرتدوا ثيابهم .

وصاح (أهاب) وهو ينظر للسماء :

ـ « ماذا ترى ؟ »

جاءه الرد من الصارية :

ـ « لا شىء يا سيدى .. »

وساد الصمت ثم بعد قليل صاح الرجل :

ـ « هنا أراه .. سنام مثل جبل ثلجى .. إنه (موبى ديك) !! »

جرى الرجال إلى السطح ليروا الحوت الشهير الذى قضوا كل هذا الوقت يطاردونه .. من هذا البعد كان الحوت على بعد ميل تقريبًا .. ترى حدبته البيضاء ونافورة زفيره المنتظمة ..

ـ « من رآه أولاً ؟ لا أحد .. أنا رأيته أولاً .. إن القدر ادخر قطعة العملة لى .. إنه ينفخ ! إنه ينفخ ! إنه ينفخ !! »

قالها وهو يتابع زفير الحوت ، ثم أردف :

ـ « لتستعد ثلاثة قوارب يا مستر (ستارباك) .. لتبق أنت على السطح ولترقب السفينة .. تمسك بعجلة القيادة .. هلم .. أنزلنى يا مستر (ستارباك) .. لأسفل .. بسرعة .. بسرعة .. »

صاح (ستاب) :

ـ « إنه يبتعد يا سيدى .. لا يمكن أن يكون رآنا .. »

ـ « القوارب .. القوارب ! »

واندفعت القوارب كلها ما عدا قارب (ستارباك) نحو الهدف .. بريق الموت ظهر فى عينى (فداء الله) وهو يضغط على أسنانه .. البحر هادئ كأنما وضع فوقه بساط سميك ، والصياد الملهوف يتقدم نحو فريسته غير المرتابة ..

يتقدم السنام الأبيض وحوله ينثر الزبد .. يشق اللون الأزرق .. ومن هذه الحدبة يبرز رمح مغروس حديث .. طيور البحر تحوم حول الحوت ، ومن آن لآخر يهبط أحد الطيور فوق طرف الرمح ..

وفجأة رفع العملاق الأبيض رأسه من الماء كاشفًا عن فكيه المريعين ، وكل جماله وهيبته ثم غاص للأعماق ، وراحت الطيور تحوم حول مكانه الذى خلا فى الماء ..

وقفت ثلاثة القوارب تنتظر .. وقال (أهاب) فى حزم :

ـ «ساعة .. »

وراحت عيناه تدوران فى محجريهما مع حلقات الماء .. صاح الهندى :

ـ « الطيور .. »

هنا نظر (أهاب) إلى الماء وإلى الطيور البيضاء التى احتشدت حول القارب .. ماكانت العين تعجز عن تبينه ، ميزته الطيور فورًا ، ورأى بقعة بيضاء فى الأعماق لايتجاوز حجمها حجم النمس .. وإذا بها ترتفع وتكبر وتكبر حتى رأى الأسنان اللامعة .. كان هذا (موبى ديك) يقترب من السطح .. وبسرعة

غير (أهاب) اتجاه القارب بعيدًا عن دوامة الموت ، وأمر (فداء الله) بأن يتبادل الأماكن معه .. كانت خطته تهدف إلى أن يستقبل رأس الحوت لدى خروجه ، لكن الحوت بغريزته التى لا تخطئ لم يصعد كما أراد (أهاب) ، بل صعد بشكل مائل ، وقد استلقى على ظهره كسمكة قرش ، وأطبقت أسنانه على أحد المجاديف .. وصار اللون الأبيض اللؤلؤى داخل فمه على بعد أمتار من رأس (أهاب) .

فى هذا الوضع الخطير راح القارب يهتز ، لكن أحدًا لم يستطع أن يرميه بالحربون وهو تحت القارب تمامًا .. هنا أطبق الفكان على القارب فى منتصفه تمامًا .. فانشطر إلى نصفين .. وكان (أهاب) الذى أطار الجنون صوابه وهو يرى نفسه من جديد تحت رحمة عدوه الأبدى ، قد فطن لنية الحوت ..

لكن تأخر الأمر وسرعان ما وجد الطاقم نفسه فى الماء ، بينما الحوت يدور حولهم فى تراخ رافعًا رأسه فوق الأمواج .. ووجد (فداء الله) نفسه متشبثًا بمؤخرة القارب ، لكن عاجز عن معاونة قبطانه الذى يجد عسرًا فى السباحة وإن كان قادرًا على الطفو .. أما القوارب الأخرى السليمة فلم تستطع الدنو أكثر بسبب الدوامات الهائلة التى صنعها

الحوت حول ضحاياه .. هكذا ظلت على محيط الدائرة التى كان مركزها رأس العجوز ..

وسط الدوامات أخرج (أهاب) رأسه وصاح فى السفينة :

ـ «تقدموا ! ابعدوا الحوت عن هنا !»

تقدمت السفينة منهم فاضطر الحوت إلى الابتعاد عن ضحاياه .. وهكذا استطاع قارب (ستاب) أن ينتشل (أهاب) بعد ما انتهت قواه الجسدية تمامًا ، لكنه صاح برغم هذا :

ـ «الحربون .. هل هو سليم ؟»

قال (ستاب) :

ـ «نعم سيدى ..»

ـ «والرجال .. هل فقدنا أحدًا ؟»

ـ «كانوا خمسة يا سيدى .. أرى واحدًا .. اثنين .. أربعة .. خمسة .. كلهم سليم يا سيدى ..»

وسرعان ما التقطت (بيكود) الرجال وبقايا القارب المشطور ، ثم بدأت فى مطاردة الحوت ..

ولم ينم (أهاب) فى تلك الليلة ..

* * *

بعد يوم كامل صاح مراقب الصارى أنه يرى حوتًا ينفث زفيره ، فقال (ستاب) :

ـ «هلم انفخ رئتيك أيها الحوت .. فلا مهرب لك .. إن خصمك المجنون قد جاء ليلحق بك .. ولن يرحمك !»

كانت حمى الحماس قد تفشت بين الرجال وصاروا أكثر رغبة فى الظفر بهذا الحوت .. من كان مترددًا أو خائفًا ذاب مع الباقين ، فلم يعودوا ثلاثين رجلاً بل صاروا رجلاً واحدًا .. تلاشت كل الفوارق بينهم ليصيروا واحدًا .. حتى أجزاء السفينة المختلفة من حديد وخشب ونحاس انصهرت فى كتلة واحدة ..

ومن بعيد برز (موبى ديك) للعيون .. ليس بنافورة الزفير ولكن بتلك الظاهرة الغريبة : الوثب من الماء .. بأسرع ما يمكن يشق حوت العنبر طريقه من الأعماق إلى الهواء .. ينفجر بركان من الفقاقيع ويراه الناس على بعد سبعة أميال أو أكثر .. وفى هذه اللحظة تبدو الأمواج كأنها معرفته ، وتشعر بأنه يتحداك شخصيًا ..

قال (أهاب) :

ـ «نعم .. نعم .. ثب وثبتك الأخيرة إلى الشمس ، فساعتك وحربونك فى يدى .. إلى القوارب جميعًا !!»

نزل إلى قاربه وصاح مناديًا (ستارباك) :

ـ « السفينة لك الآن .. ابتعد عن القوارب لكن ابق فى متناولها ! »

هنا اندفع (موبى ديك) نحو القوارب ليوقع الرعب فى قلوبها ، وكأنما يكره ألا يكون هو البادئ بأية هجمة .. واستعد (أهاب) لمواجهته رأسًا لرأس وهو أسلوب شائع يستغل أن عينى الحوت جانبيتان .. وبدا أن الحوت يريد تدمير كل شظية فى القوارب برغم كل الحربونات التى انغرست فيه .. لكن القوارب تفادته ببراعة لا تصدق ولا يملكها إلا صيادو (نانتيكوت) ..

لكن الحوت وقد تكاثرت الحبال من حوله راح يدور ويدور حتى انقلبت كل القوارب واصطدمت ببعضها فلم يبق إلا قارب (أهاب) الذى ظل يتشبث به بحبل ، من ثم اندفع الحوت للأعماق فطار القارب فى الهواء ثم انقلب بمن فيه وفر الحوت ..

تم إنقاذ الرجال وقد امتلئوا بالكدمات والسحجات لكن لم يمت أحد .. تهشمت رجل (أهاب) العاجية ، لكنه وقف على سطح السفينة وقد تركزت عليه العيون .. صاح وهو ينظر إلى البحر :

ـ « لن يستطيع البحر ولا الحيتان أن يخدشوا (أهاب) .. إلى أين اتجه الحوت ؟ »

ـ « باتجاه الريح يا سيدى .. »

ـ « إذن باتجاهه .. أخرجوا القوارب الاحتياطية .. ما أقسى أن يضطر قبطان مثلى لاصطحاب هذا الرفيق الذى لا خير فيه ! »

ـ « سيدى ؟ »

ـ « أتكلم عن جسدى الذى لا خير فيه .. أريد عصا أتوكأ عليها .. هذا الرمح يصلح .. ولكن أين هو ؟ مستحيل .. »

هنا فهموا عم يتحدث .. (فداء الله) .. لقد اختفى ..

ـ « ابحثوا عنه ! فتشوا السطح .. لا يمكن أن يكون قد مات .. مستحيل ! »

بحث الرجال فى السفينة ، ثم عاد (ستاب) ليخبر القبطان أنه لا وجود لـ (فداء الله) .. من الجلى أن الرجل قد تورط فى عقد الحبل الخاص بقارب (أهاب) .. فقد رآه وهو يحاول التحرر .

صاح (ستارباك) :

ـ « يا إلهى القدير ! أنت لن تمسك بالحوت أيها العجوز .. إن هذا الذى تقوم به لأسوأ من جنون الشيطان .. يومان من المطاردة ولمرتين تتهشم القوارب .. قدمك تنتزع منك ثانية وظلك الشرير يختفى .. هل ستواصل مطاردة هذه السمكة القاتلة حتى يموت آخر رجل منا ؟ هل ستجرنا خلفها إلى عوالم الجحيم ؟ من التجديف أن نحاول اصطيادها ثانية .. »

قال (أهاب) :

ـ « (ستارباك) .. مؤخرًا حسبت أننى أميل لك .. لكن فى موضوع الحوت هذا أرى وجهك كراحة يدى .. خواء بلا شفتين ولا ملامح .. (أهاب) هو (أهاب) أبد الدهر .. هذا الذى نقوم به قد أجرينا له (بروفة) منذ ملايين الأعوام قبل أن يوجد هذا المحيط .. أنا شرطى القدر .. أنفذ أوامره .. أنت ترى عجوزًا مبتور الساق .. هذا جسد (أهاب) ، لكن روح (أهاب) تجرى فوق ألف ساق .. »

ثم قال لنفسه :

ـ « النبوءات ! النبوءات ! ما حاجة الأقدار للنبوءات ؟ حين ترغب فى الكلام تتكلم ولا تعطى تلميحات كتلميحات العجائز .. لقد رحل (فداء الله) وقد تنبأ بأنه سيرحل أولاً ثم أتبعه أنا .. لكن لابد من أن يعود قبل رحيلى .. هكذا قال فما معنى هذا ؟ »

ومر الليل والرجال منهمكون فى إعداد القوارب الاحتياطية ، والنجار منهمك فى صنع ساق جديدة لـ (أهاب) ..

★ ★ ★

الفصل السابع والعشرون

اليوم الثالث :

فى اليوم الثالث اندفعت القوارب للهجوم ، لكن الحوت الذى أثارت جنونه كل الجراح والرماح المغروسة فيه ، هجم على القوارب .. ومرة أخرى بعثرها .. لكنه لم يمس قارب (أهاب) ..

كان الحوت يسبح بقرب (داجو) و(كويكونج) .. هنا دوت صرخة عالية .. فإلى ظهر الحوت ، مربوطًا مرارًا بالحبال ، كان نصف الجسد الممزق لـ (فداء الله) .. لقد عقدته الحبال حيث هو أمس ، وقد تصلبت عيناه الجاحظتان على (أهاب) فسقط الحربون من يده ..

ـ « (فداء الله) !! لقد خدعت أراك من جديد .. وكنت قد رحلت بعيدًا .. هذه هى النبوءة التى قلتها لى .. لكن هذه القوارب لم تعد تصلح يا رجال .. خذوها للسفينة وأصلحوها .. أنتم لستم رجالاً آخرين .. أنتم ذراعاى وساقاى .. »

وهكذا اندفع القارب إلى جوار الحوت ، بينما أسماك القرش تطارد الاثنين ، فهتف (أهاب) :

ـ « لن نعرف إن كانت الأسماك جاءت للظفر بالحوت أم (أهاب) .. »

وهكذا استمرت المطاردة ، وبدا أن الحوت لا يلاحظ من يطاردونه ، أو أن صراع ثلاثة الأيام قد أوهن قواه .. كان (أهاب) غارقًا فى بخار زفير الحوت .. أخرج القبطان حربونه وفرد ذراعيه وطوح بظهره للوراء ثم رمى بالحربون بأقوى ما استطاع إلى داخل الحوت الكريه .

لم يتعب الحوت نفسه بالعض ، وإنما بحركة واحدة قلب القارب ، وسرعان ما وجد (أهاب) نفسه فى الماء من جديد ..

ونظر الحوت إلى السفينة .. أدرك أنها مصدر كل مشاكله ، وبدت له عدوًا أضخم وأكثر نبلاً ..من ثم اتجه نحوها بسرعة والماء يتناثر من حول فكيه ..

وصرخ بحارة القارب :

ـ « الحوت ! السفينة !! »

ورأى (ستارباك) الهول القادم وسمع الصراخ .. فصاح :

- «الحوت ! يا كل قوى الهواء الخيرة ، لاتدعى (ستارباك) يمت ..احتضنينى ! إلى عجلة القيادة يا حمقى ! هل هذه نهاية كل صلواتى ؟ هل هى نهاية إيمانى ؟ (أهاب) .. تعال لتر عملك ! أيها الحوت المكشر عن أنيابه أنا أكشر عن أنيابى لك ! لقد انتهت الرحلة بالنسبة لنا !» وتحول الجزء الذى صدمه الحوت إلى فوضى من شظايا الخشب والحربون والحبال .. بينما الحوت يدور حول السفينة .. يوحى منظره بالكثير من تصفية الحساب والانتقام السريع والشر الأبدى .. هشم الميمنة فتهاوى الرجال ، وسقط رماة الحربون ورءوسهم تتأرجح على أعناقهم الغليظة .. وغاص الحوت تحت السفينة ليخرج على مقربة من قارب (أهاب) ..

صاح (أهاب) :

- «هل كتب عليك أيتها السفينة العظيمة أن تغرقى وأنا بعيد عنك ؟ هل أحرم من المجد الذى يناله أحقر القباطنة ؟ أيها الموت المنعزل فى حياة منعزلة ! تعال أيها الحوت

الذى يدمر لكنه لا يقهرنى .. سوف أغرس الرمح حتى آخر نفس لدى .. من أعماق قلبى ومقتى سأغرس رمحى .. »
وأطلق الحربون ، فطار الحوت للأمام بسرعة وقد تمسك به الحبل .. انحنى (أهاب) ليحرر الحبل لكنه التف عليه .. التف حول عنقه فطار فى صمت كما يفعل الخناقون الأتراك بضحاياهم .. وعرف الطاقم أنه لن يعود ..

وسرعان ما توارى الحبل وسط الماء ..

وبعد دقائق عاد للطاقم فى القارب الوحيد وعيه ، فراحوا يتساءلون :

- «السفينة ! بحق السماء أين السفينة ؟»

أخيرًا وجدوا شبحها الباهت وقد أبقى الماء صاريتها فحسب ..

يرى الرجال الراية التى ثبتها (أهاب) بنفسه على الصارية وهى تغوص إلى الأعماق ، كأنها الشيطان الذى تقول الأساطير إنه لن يهوى إلى الجحيم إلا بعد ما يسرق جزءًا من الجنة معه .. وبدأت الأمواج تضرب الموضع الذى كانت فيه السفينة .. مثلما كانت تفعل دومًا منذ خمسة آلاف عام .

* * *

قد انتهت الدراما فلماذا يمضى أحد خطوة أخرى للأمام ؟

لأن هناك واحدًا قد نجا من الحطام .. ولأنه بعد هلاك (فداء الله) كنت أنا من اختاره القدر ليجدف مكان الرجل الشاغر .. وكاد التفريغ الناجم عن غرق السفينة يمتصنى ، ودخلت تلك الدوامة المغلقة .. هنا وبمعجزة ما وجدت أن التابوت الذى اتخذناه قارب نجاة يطفو جوارى ..

قضيت فى هذا التابوت يومًا كاملاً وليلة كاملة .. ورحت أسبح بين أسماك القرش التى لم تحاول إيذائى ، كأنها مكممة .. وفى اليوم الثانى رأيت شراعًا يدنو ويدنو حتى انتشلنى أخيرًا .. كانت هذه السفينة (راشيل) التى كانت تجول البحر بحثًا عن أطفالها الضائعين ، فلم تجد إلا يتيمًا آخر .

هيرمان ملفيل

ماساتشوستس ـ 1851

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

روايات عالمية للجيب



موبى ديك

52

هى ملحمة حقيقية .. سفينة صبا حيتان .. قبطان غريب الأطوار استحوذ عليه شيطان الانتقام .. حوت أسطورى عملاق لا تصدق أنه لا يعرف ما يفعل .. محيطات ثائرة .. آكل لحم البشر .. بحارة متوجسون .. وقصة من عيون الأدب الأمريكى يجد فيها كل قارئ ما يناسبه تماما .. الرمز .. الأسطورة .. التعقيدات النفسية .. التوجس .. المغامرة ..

العدد القادم

(غرباء فى أرض غريبة)

الثمن فى مصر ٢٥٠ قرشًا
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

